ميثاق الرابطة

لسان رابطة علماء المغرب

أسبوعية جامعة تصدر كل جمعة - الثمن : 3 دراهم

السنة 35 - العدد 1009 - الجمعة 26 ذو الحجة 1423 هـ - الموافق 28 فبراير 2003

حصن الأمة الإسلامية اتباعها للكتاب والسنة

لقد أمتنا الإسلامية بعد ظهور الإسلام في زمنه – صلى الله عليه وسلم – وكذلك بعد حياة الصحابة من بعده عليه الصلاة والسلام وبعد الأئمة الأربعة مما جعلنا فرقا وطوائف وشيعا ومن هذا التجاذب التياري العقدي تسرب لمجتمعنا ما أضعفه وبدده وشرذمه وغذى هذا التباين في التوجه العقدي وغيره أعداء الإسلام ولقد حان الوقت أن يتفهم المسلمون قادة وشعوبا ما حيك ضدنا وما يحاك... لا أريد من هذا أن أئمتنا ومذاهبنا وعلماءنا ليسوا على صواب فيما انتهج كل إمام في مذهبه مادام يوافق عمله الكتاب والسنة وما جرى عليه عمل أسلافنا الصالحين لكن القصد عندي هو أن يوحد المسلمون صفوفهم ويحترم كل منا مذهب إمام الآخر ونقوي مراكز الاتفاق عندنا في القول والعمل ويعامل البعض منا البعض باحترام ومرونة ولطف ونتجه لتقوية الروابط وتمتين العلاقات والتحام الصفوف وننشر الألفة والمحبة فيما بيننا نحن المسلمين وفيما بيننا مع بقية شعوب العالم وقاداته حتى نفرض احترامنا عند الكل بسلوكنا الرحماني وعلاقاتنا الإنسانية...

وندحض بعملنا البناء ما يشيعه عنا أعداؤنا ليؤلبوا العالم على المسلمين ظلما وعدوانا بإشاعاتهم المغرضة، فيا معشر المسلمين إياكم، ثم إياكم أن تبقوا في ما نلاحظ من شتات وخلاف وتباعد... نتيجة مؤامرة مبيتة ضدنا نحن المسلمين.

فالآيات القرآنية الحاثة على التضامن والتلاحم فيما بيننا كثيرة والأحاديث النبوية الملحة على التآزر ووحدة الصف بين أفراد المسلمين وجماعاتهم هي كذلك كثيرة ومدونة في الكتب المعتمدة في الحديث النبوي الشريف، فاللهم اجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

سلك الله بهذه الأمة المظلومة سبيل الخير ووقاها الله من كل شر وضير كما نرجوه أن يزرع في نفوس الإنسانية عامة المحبة والإيخاء فيما بينها إنه ولي التوفيق.

بقلم لارباس الشيخ ماء العينين
الأمين العام بالنيابة لرابطة علماء المغرب

دور الصحافة في نشر الفضيلة

كلنا نعلم أن دور الإعلام، بصفة عامة، والصحافة بصفة خاصة، دور متميز في المجتمع يشارك في التوجيه، ويبلغ الخبر، ويحلله ويفصل مجمله ويقيد مطلقه ويخصص عمومياته ليصل به إلى المقصود الإيجابي بطريقة مختصرة مع استمرار استيعابه لفترة أطول.

إن جميع الصحفيين يعلمون – أو يفترض فيهم أن يعلموا – أن رسالة الصحافة رسالة متميزة، وهدفها نبيل، بل إننا نتصور أن للصحافة ميثاق شرف، وقسم سري يلتزم به كل من قدر له أن يركب سفينة الإعلام المكتوب.

القرآن الكريم استعمل كلمة 'الصحف' ثمان مرات، فقال في سورة 'طه': (أو لم تاتيهم بينة ما في الصحف الأولى) الآية:133، وقال في سورة 'النجم':(أو لم ينبأ بما في صحف موسى) الآية:36، وقال في سورة عبس: (فمن شاء ذكره في صحف مكرمة) الآية:13، وقال في سورة التكوير: (وإذا الصحف نشرت) الآية:10، وقال في سورة 'البينة': (رسول من الله يتلو صحفا مطهرة) الآية:2.

كل هذه الآيات وغيرها تشير إلى دور الصحف في إبلاغ الرسالة، وإيصال التوجيه الإلاهي إلى البشر للاطلاع والإحاطة والتبليغ والتنفيذ لما يجب أن ينفذ في التربية العامة والسلوك الإنساني.

إننا نلح على المشاركين في نادي الصحافة أن يتأملوا كثيرا معنا في الوصف الذي أعطاه الله عز وجل لهذه الصحف 'في صحف مكرمة إنها صحف مكرمة فمن أين جاءها التكريم وسجله الله لها ليبقى يتلى من طرف الإنسان إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وفي سورة البينة يصفها الله تعالى بالصحف المطهرة فقال: (رسول من الله يتلو صحفا مطهرة) فوصفها الله تعالى بأنها صحفا مطهرة، إن طهارتها اكتسبتها لأنها جاءت من عند الله أولا، ومن وحي سماوي، ونزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكل ما نزل في القرآن فهو مطهر من الله عز وجل.

سقنا هذه الآيات القرآنية في هذا الموضوع ليعلم نادي الصحافة، بصفة عامة، ومحرري الصحف، بصفة خاصة، أن الدخول إلى هذه الدار يلقي عليهم التزاما أخلاقيا ويفرض عليهم منهجا تربويا يحقق الرسالة التي وجدت من أجلها الصحف، إنها صحف مكرمة وصحف مطهرة، فهل ما نراه ونشاهده من الصحف التي تفرش بها الشوارع، وتمدد على الأرصفة ملتزمة برسالتها؟ وأصحابها ينفذون قسم المهنة السري ويحفظون لها شرفها وتكريمها، وطهارتها؟

لاشك أنه يوجد من بين الصحف من يحافظ على هذه الأمانة ويؤدي الرسالة، ويتذكر معها الآيات القرآنية التي تتحدث عن الصحف، ولكن في الساحة العمومية عددا كبيرا من الصحف ليس لها دور إلا إفساد الأخلاق ونشر الميوعة والتربية على الانحراف بكل أنواعه.

وكأن دورها هو الإساءة إلى الإنسان والنزول به إلى مرتبة حيوانية خاصة، بل إن بعض الصحف نجدها تخصص صفحات لنشر الفساد، وخلق جيل من الشباب ممن ينحرفون إلى الشذوذ، ويصنعون منه سلوكا يربطونه بالحقوق الإنسانية والحرية والتربية على الديموقراطية التي لا تمنع من أي شيء، وتبيح كل شيء.

إن هذا النوع من الإعلام، وهذه الشريحة من البشر الذين يسمون أنفسهم صحفيين ليس لهم من رسالة الإعلام إلا الذكر السيء في الدنيا، والحساب العسير في الآخرة.

إن قواعد التربية عندنا تقول: 'درهم حلال، خير من ألف درهم فيه شبهة'، وأصحاب صحف الرصيف الذين ينشرون التربية على الفسق والفجور، ليكن في علمهم وفي حسابهم أن الله يمهل ولا يهمل، وأن للمجتمع المغربي الذي تربى على الأخلاق والفضيلة وفيه آباؤهم وأجدادهم ولهم قواعد من السلوك لا يقبل تجاوزها سواء في الإعلام المكتوب أو في غيره، وقد يكون تغيير المنكر بالقلب أقرب طريق إلى الله تعالى، وأسرع وسيلة إلى علاج البشر مما أصابهم، فاتقوا الله يا أصحاب الجرائد الشاذة، فيما جعله الله بين أيديكم وحافظوا على شرف الرسالة وكرامة الصحافة وطهارتها، واقرأوا معنا قول الله تعالى في سورة الفاتحة: (اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين) صدق الله العظيم.

ميثاق الرابطة

فضل القرآن وترتيله

كيف يخرج الإنسان من بين الصلب والترائب

أولوا العزم من الرسل

المغرب والهوية الإسلامية

إعداد الأستاذ: عبد القادر العافية

هويتنا الإسلامية، ترسّخت عبر السنين والأحقاب ولايزيدها مضي الزمان إلا رسوخا وثباتا.

فأمتنا المغربية كيّفت نفسها مع تعاليم الاسلام ومبادئه وقيمه وتوجيهاته وآدابه... وتفاعلت مع التوجيه الديني الإسلامي في مختلف مجالات حياتها، في أفراحها وأتراحها، ومواسمها، وأعيادها.. وأصبحت أمتنا مطبوعة بالطابع الإسلامي، حريصة على بناء المساجد، وتشييد الصوامع والجوامع، شديدة الحرص على تعليم أبنائها كتاب الله عزوجل، تتباهى بمحافظتها على شعائر الإسلام وقيمه، تتنافس في أداء مناسك الحج والعمرة، ويستلذ رجالها ونساؤها مناداتهم بالحاج والحاجة، ويتمنى كل فرد من أفرادها أن يكون له أبناء أو بنات يحفظون كتاب ربهم كلا أو بعضا، لمكانة القرآن الكريم في نفوسهم، ولسمو مرتبته في قلوبهم، يترصدون المواسم الدينية، والذكريات الإسلامية، ويجعلون منها مناسبات جليلة للتذكر والاعتبار ، وموسم رمضان المبارك خير دليل على ذلك،حيث يعم الصيام، ويفرح الناس بقدوم رمضان وتمتلئ المساجد ليلا ونهارا، ويحتفلون بذكرى ميلاد الرسول (ص)، وبذكرى نزول القرآن، وغزوة بدر، وغيرها من المناسبات الدينية، ويعظمون آل بيت رسول الله (ص)، وترى الذين يجهلون بعض أحكام الدين، أو بعض قضاياه في العبادات والمعاملات، يسألون العلماء، ويسعون إلى معرفة أحكام الشرع في هذه المسألة أو تلك، ولايستريح ضمير كثير منهم إلا إذا كان عمله وفق أحكام الشريعة الاسلامية، والذين يجهلون أو يتهاونون أو يحرفون ... يشعرون بالندم، ويسرعون إلى التوبة وطلب المغفرة من الله تعالى ويتصدقون رجاء قبول توبتهم...

والناس في بلدنا يواظبون على صلاة الجمعة وتزدحم بهم المساجد، ويتهيأون لصلاة الجمعة بالاغتسال والطيب، ولبس الثياب المناسبة، تقديرا لهذه الشعيرة الاسلامية ويوم الجمعة في مجتمعنا له اعتبار خاص لمكانته في نفوس الناس، وتراهم يبكرون إلى المساجد للصلاة، ولقراءة القرآن، والاستماع إلى قراءته وتلاوته، ويكثرون من النوافل والدعاء وطلب المغفرة لهم ولوالديهم وأسلافهم، ويدعون بالهداية لأنفسهم ولأبنائهم وبناتهم وأزواجهم وذويهم...

فحياتنا ولله الحمد مطبوعة بالدين، ولم يفلح الاستعمار الفرنسي والاسباني بالرغم مما بذله من جهود وبالرغم مما أتى به من بدائل في ميدان التعليم، والفكر والثقافة.. لم يفلح في صرف الناس عن عقيدتهم، ولا في تشكيكهم في هويتهم المستوحاة من تعاليم دينهم الاسلامي وقيمه وأخلاقه... وحتى الذين تحمسوا لتقبل الحضارة الغربية لم يستطيعوا أن ينسلخوا من هويتهم الاسلامية، ولا من ثقافتهم الدينية، وظلوا في كثير من تقاليدهم، وعاداتهم محكومين بالطابع الإسلامي، وكثير منهم لايجد بدا من الاندماج في الجماعة... وعند الازمات والنكبات يشتد الالتجاء إلى الله تعالى، وعندما تحل مصيبة الموت تراهم من السباقين لإقامة الشعائر الاسلامية في التجهيز والدفن والصلاة والدعاء، والترحم بقراءة القرآن، وبطلب العفو والمغفرة...

فهويتنا الإسلامية واضحة ومتجلية في سائر تصرفاتنا الاجتماعية : في الخطبة والزواج، وفي الاحتفال بولادة الأولاد ذكورا وإناثا، وأغلب الناس يتخير لأبنائه وبناته الأسماء الاسلامية التي لها مدلول ديني أو تاريخي أو بطولي... معتزين بتاريخهم الاسلامي، ومتفائلين به، فاسم : محمد، وأحمد، وعبد الله ، وما عُبِّدَ وحُمِّدَ هو الشائع بيننا في أسماء الذكور، واسم فاطمة وعائشة وزينب، وهند، وأسماء... في البنات...، وحرصنا على التمسك بهويتنا الإسلامية يسود بيننا بعفوية كاملة أمازيغ، وعرب، لأن الاسلام وحّد أمتنا، وهو القاسم المشترك بين جميع أفراد أمتنا، والاخوة الاسلامية. بحمد الله. لاتميز بين جنس وجنس، ولابين لون ولون، أو إقليم وإقليم، مصداقا لقول رسولنا (ص)، "المسلم أخو المسلم" وفي القرآن الكريم: "إنما المومنون إخوة" سورة الحجرات/الآية:13.

فالإسلام طبعنا بميسَمِه، وجعلنا أمة واحدة، استجابة لقوله تعالى: "إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون"سورة الأنبياء/الآية:92، وفضل الإسلام على أمتنا ذو أبعاد كثيرة لاحدود لها، وحتى الذين يهاجمون بعض التقاليد، أو بعض مظاهر الجمود، أو الانحراف يأبون كل الإباء أن ينعتوا بالتنكر لهويتهم الإسلامية، أو يُتّهموا بالإعراض عن مبادئ الدين، أو بضعف الإيمان... وكل هذا يدل على أننا بحمد الله ولطفه مانزال معتزين بهويتنا الإسلامية، والذين يدعون منا إلى العصرنة أو الحداثة ينطلقون من رغبة إصلاحية، وعن غيرة وطنية، ونية حسنة صادقة في أن يروا مجتمعهم في وضع أحسن، وفي مكانة أرقى.... والكثير منهم . إلا ماشد . لاينطلق من عداوة للدين، ولامن التنكر لقيمه ومثله العليا، وليس كل داع للتجديد والحداثة وإقامة مجتمع يتمتع بكافة الحقوق الإنسانية والعدالة الاجتماعية... يعمل ضد تعاليم الإسلام، لأن هويتنا الإسلامية راسخة في نفوسنا تجري بها دماؤنا في عروقنا، ومن شذّ شذّ في النار، والدعوة إلى الاصلاح والإنقاذ والنهضة والعزة والكرامة لها طرق شتى، وأساليب متعددة.. والاختلاف في الأسلوب والطريقة لايدل حتما على الاختلاف في الأهداف والغايات.وبالحوار البناء نضمن السيادة لبلدنا، والعزة لأمتنا، والمكانة السامية لدولتنا، وماعلينا إلا أن نطبق قول الله تعالى: "ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة، وجادلهم بالتي هي أحسن..." سورة النحل/الآية:125.

لقد كنا وسنظل أمة موحدة لها من إيمانها والتمسك بثوابتها مايضمن لها الوقوف بصمود في وجه أعدائها والمتربصين بها والعاملين على النيل منها، هكذا سنظل بتوفيق من الله، وبألطافه الظاهرة والخفية، والأمل في الله كبير، وهو حسبنا ونعم الوكيل، والذين لايدركون هذا خارجون عن السرب، وسيعشون في محنة إلى أن يستيقظوا.

تكامل الفقهاء والقراء في استخلاص الأحكام من نصوص القرآن

إعداد الأستاذ: محمد حمان

إذا كان الفقهاء لايستندون في أحكامهم الفقهية المستخلصة من نصوص الكتاب العزيز إلا للقراءات المتواترة، فإنهم بذلك يتكاملون مع القراء الذين يعتبرون بحكم اختصاصهم في ميدان الإقراء، هم المعول عليهم في معرفة مايصح من القراءات ومالايصح، ومايدخل في إطار التواتر، ومايلحقه الشذوذ.

فعلى القراء يعتمد الفقهاء في الوصول إلى إدراك أنواع القراءات التي تتوفر فيها جميع الأركان والشروط.

فأصحاب الفقه يستعينون بأصحاب القراءات إذ ينطلقون في استنباطاتهم الفقهية من الأصول التي أصلها القراء، ومن القواعد التي قعدوها في ميدان الإقراء.

ومعلوم أنه ليس ضروريا أن يكون الفقيه قارئا متقنا للقراءات القرآنية، وإنما يكفيه أن يكون له بعض الاطلاع على ميدان الإقراء، إذ بإمكانه أن يعتمد على ماصح عند ذوي الاختصاص من القراء، ومنه ينطلق في استنباطه للأحكام، لأن تعلم العلوم المختلفة يعد من فروض الكفاية، ولابد من أن يكون العالم المختص في الفقه الإسلامي على بينة مما قاله العلماء القراء في ميدان الإقراء.

فدراية الفقيه الكاملة، وعلمه التام بما هو معدود لدى القراء من المتواتر، وماهو معروف بينهم بالشاذ، تجعله يستطيع أن يتخذ موقفا واضحا ومقبولا من هذا النوع أو ذاك.

فالمعول عليه عند الفقهاء في استخراج الأحكام هو ما تواتر من القراءات، وإن كانوا لايستغنون عن معرفة القراءات الشاذة التي تفيدهم أحيانا في بيان المراد من القراءات المتواترة، وأحيانا أخرى ترشدهم إلى ترجيح بعض المعاني على غيرها.

وتحقيق التعاون والتكامل بين القراء والفقهاء يفرض على كل من الفقيه والقارئ ألا يكون أحدهما بمعزل عن الآخر، بل يجب أن يهتم كل منهما بمجال الآخر، إذ لامعنى لاعتبار الفقيه فقيها مقتدرا، وهو يجهل كل شيء عن القراءات القرآنية، كما أن القارئ المسلم يحرص كل الحرص على معرفة الأحكام الفقهية بصفة عامة، وتلك التي لها صلة وثيقة بمجال الإقراء على وجه الخصوص، فلا يجمل بعالم القراءات أن يجهل ما عليه جمهور الفقهاء من كون القراءات الشاذة لايجوز أن يقرأ بها القرآن لا داخل الصلاة ولا خارجها.

وأيضا ينبغي للقارئ المسلم أن يكون على علم تام بأن الفقهاء لايستنبطون أحكامهم الفقهية إلا على أساس ماتواتر من القراءات القرآنية، لأن هذا العلم هو الذي يمكنه من معرفة الفقه معرفة جيدة، فيسعى إلى تطبيقه في حياته العملية كمسلم بكل اطمئنان واقتناع بصوابه.

وعلى اعتبار أن جميع القراءات القرآنية المتواترة تعبر عن مراد الله، وأن كل قراءة مع قراءة أخرى بمثابة آية من آية أخرى، يكون هناك حتما تعاون وتكامل بين القراء والفقهاء في مجال استنباط الأحكام.

ذلك أن علماء الإقراء بكشفهم عن أوجه القراءات القرآنية المختلفة يوسعون الدائرة أمام المختصين في الفقه الإسلامي، إذ يصبح في إمكانهم استخراج أحكام عديدة من آية واحدة قرئت بعض كلماتها بقراءتين فأكثر، فلا انفصال بين عمل القراء وعمل الفقهاء، لأن كلا الفريقين يهدف إلى هدف واحد، وهو خدمة الشريعة الإسلامية التي تتضمنها نصوص الكتاب العزيز.

الوثاق

تقييد على قوله تعالى : "تلك حدود الله" الآية للشيخ العالم العلامة أبي الفيض سيدي حمدون بن الحاج رحمه الله

يسرنا أن نقدم للقراء نموذجا لتفسير القرآن الكريم كان يعتمده العلماء المغاربة، وأبى صاحب الجلالة المغفور له الحسن الثاني، إلا أن يمكن له من خلال الدروس الحسنية الرمضانية لإحياء ما درس منه، والتمكين له بين المناهج المعتمدة في تدارس كتاب الله العزيز، فكانت سنة حسنة ماجور فاعلها والقائمون بها ومتبعوها إلى يوم الدين، مصداقا لقوله صلى الله عليه وسلم:«من سن سنة حسنة...» الحديث.

■ الأستاذ : إدريس كرم

هذا تقييد على قوله تعالى : "تلك حدود الله"الأية.

تلك حدود الله إلى قوله عذاب مهين،نتكلم عليها بما يفتح الله تعالى من علوم نقلا وعقلا.

علم اللغة: الانهار جمع نهر، وهل هو الماء الجاري أو الشق نفسه خلا.

علم النحو: ومن يطع عطف على محذوف، لأن مقتضى ماذكر ان يترتب عليه الكلام بإلغاء، والتقدير كما قال البقاعي: تلك حدود الله، فمن راعاها ولو لم يقصد طاعته بل رفعا لنفسه عن دناءة الإخلاد إلى الفاني، ومعرة الاستيثار على الضعيف المنبني عن البخل، وسفول الهمّة نال خيرا كثيرا، فإنه يوشك أن يجره ذلك إلى أن يكون ممن يعصى الله تعالى ورسوله ومن يعص لخ.

وجنات منصوب على الظرفية عند الجمهور، وعلى المفعولية عند الأخفش، وخالدين فيها حالا مقدرة كقولك مررت برجل معه صقرا صائدا به غدا ويجوز أن يكون صفة بجنات على مذهب الكوفيين، وبه أخذ الزجاج هاهنا، ولايحتاج إلى ابراز الضمير عندهم إذا لم يلبس، وعلى قياس ذلك نارا خالدين فيها، وقد روعي خالدا لفظها لما سيأتي.

علم المعاني: تلك إشارة إلى الأحكام المنقضية، وانقضاؤها في حكم بعدها أو الجليلة النفع العظيمة الجدوى، وحدود الله الإضافة للتعظيم، ومن يطع الله، إظهار في موقع الإضمار ندخله بالنون للعظمة في الموضعين التفات، ويدخله على الأصل، وفيها تعظيم أيضا لبنائها على الإسم الأعظم، وذلك أي مارٌ من دخول الجنة الموصوفة وما فيه من دال البعد.. علو درجات الفوز العظيم ، تعريف الجزاين للحصر، وصف الفوزبوهو الظفر بالخير بالعظم باعتبار متعلقه أو باعتبار ذاته، فإن الفوز بالعظيم عظيم ، والجملة اعتراض تذييلي، ومن يعص الله ورسوله لخ كقولك فمن كانت هجرته لخ وتنوين جنات للتكثير والتعظيم، ونارا للتعظيم أيضاوالمراد من الإهانة غايتها لأن كل عذاب مهين، وفيها ايجاز، وهو من أقوى أسباب الإعجاز، منه ماتقدم، ومنه، ومن يطع الله ورسوله، أي ولم يتعد حدوده، اكتفاء بقوله حدود الله، ومنه الإحتباك إلى الأصل ندخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها، وله نعيم معظم، وذلك الفوز العظيم.

ومن يعص الله إلى وله عذاب مهين، أي وذلك الخسران المبين، والإضمار في قوله الأنهار أي مياه الأنهار أو مجاز اسنادي أو مجازي. وهو من علم البيان.

علم البيان: تلك حدود الله أي شرائعه التي هي كالحدود المحدودة التي لا تجوز مجاوزتها من تحتها الأنهار، واللام للعهد والمعهود، أنهار الدنيا المعروفةوالمراد بذلك الحقيقة لأن جريان الأنهار من تحتها نعيم في نفسه، ونزهة برأسه، كما قال لهم غرف من فوقها عزف ومبنية تجري من تحتها الأنهار، أو كتابة عن دوام ريها وثمارها وظلالها كما قال مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار لخ، وعلى هذا ففيها إشارة إلى اجتماعهم وأنسهم على أنواع الاشريةوما بقيت من اللذات إلا محادثة الكرام على الشراب، ويجوز أن يراد الكتابة أيضا، باعتبار أنهار الماء، فتكون الأية ، كما في قوله أولئك لهم رزق معلوم فواكه لخ، والإعتبار هذا لانس جمع خالدين، وافرد خالدا كما سيأتي.

علم البديع: منه الإلتفات باعتبار الاحتباك، ومقابلة خمسة بخمسة، باعتبار المحذوف من الجانبين، في قوله ومن يطع الخ بل مقابلة ستة بستة، إذ المعنى من يطع الله ورسوله بأن لم يتعد حدوده تعظيما لها، ندخله جنات تجري من تحتها الأنهار، له نعيم عظيم، وذلك الفوز العظيم، ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده استهانة بها ندخله نارا خالدا فيها وله عذاب مهين، وذلك الخسران المبين.

علم المنطق: فيها الشكل الاول مع حذف الصغرى، والنتيجة في قوله ومن يطع وفي قوله ومن يعص، على ماتقدم تقديره، ولك أن تقدره هكذا: تلك حدود الله فقفوا عندها،فمن وقف عندها أطاع الله ورسوله، ومن لم يقف عندها عصى الله ورسوله لخ.

علم الكلام: أما أن يكون المعنى من يطع بأن لم يتعد حدوده، ومن يعص الله ورسوله، بأن يتعدى على أن، ويتعدّ حدوده تفسير للعصيان ، فأهل السنة يعممون في ومن يطع حتى يشمل من مات مصرا على الكبيرة، ويخصصون عموم ومن يعص بالمشيئة وجعل الجلود بمعنى طول المكث، والمعنى ندخله نارا طائلا مكثه فيها إن شئنا، لقوله: إن الله لايغفر أن يشرك به الأية.

والمعتزلة يخصصون عمومات الوعد بمن لم يمت مصرا على الكبيرة، ويعممون آيات الوعيد، ويرجح مذهبنا سعة رحمة الله، فتخصيص عمومات الوعيد بالوعد أولى من العكس على أن بعضهم جوز تخلف الوعيد.

قال السعد في شرح النسفية، والمحققون على خلاف هذا، كيف وهو تبديل قول،وقد قال تعالى مايبدل القول لدى،وأما أن يكون المعنى ومن يومن بالله ورسوله ندخله لخ. قال ابن كمال باشازاد، هنا على العصيان تعدى الحدود، وهو في الأعمال صرفا للعصيان إلى مايكون في العنا.. وفائدته التنبيه على أن المراد من الإطاعة في قسمَيْه ما يكون في العقائد، وأن الموعود من دخول الجنة ليس بمشروط بالعمل الصالح، وذلك في مقابلته الاهانة لأنه لايتعداها إلا من اغترّ وتكبرّ عن الحق فناسبه الإهانة.

علم أصول الفقه: ومن يطع الله ورسوله أي في جميع طاعته هذه وغيرها بالاقبال عليها وترك ماسواها لأجله سبحانه، قال الاصبهاني... ووقوعه عقيب هذه التكاليف الخاصة لايخصصه الإشهار، تقدم مافيه والاضمار سواء، وهل عموم من يطع مخصص فمن لم يعص أو عموم من يعص مخصص بمن لم يطع ، خلاف بين أهل الاعتزال وأهل السنة.

علم الفقه: استفيد من الأية وجوب من اطلعنا على عصيانه لله تعالى والرسول من وارث وشاهد أو حاكم او ملك وغيرهم، والنهي بالقلب واللسان أو اليد لمن بالإيمان تأيد .

علم التصوف: في لفظ الحدود إشارة إلى تأكيد الأمر بتوقي الشبهات كلها، وإن المكلف ينبغي له الأخذ بالاحتياط، وفي مد حدوده إشارة العبودية بإخراج كل عن نظر واختياره، ثم انقياده وذلته لحكم ربه والوقوف عند حدوده، وفي الجمع بين الترغيب والترهيب إشارة إلى أن العبد يجب عليه أن يستحضر ذلك كله عندما خطر له خاطر شيطاني وأمر شهواني لايخرج الشهوة من القلب إلا خوف مزعج أو شوق مقلق.

قال البقاعي في تقديم الترغيب:

لتسمح نفوسهم بترك ماكانوا فيه مع مافيه من التلطف بهذه الأمة، والتبشير له (ص) بأنها مطيعة راشدة، ولما اشربت القلوب الصافية ذوات الهمم العالية من نيل هذا الفوز العظيم اتبعه الترهيب فطالها من تلك العوائد بالكلية.

علم القراءات: قراءة المدني والشامي بنون ندخله في الموضعين وهي أشد تنشيطا بلذة الالتفات.

علم المناسبة: الذي هو من علوم التفسير كالبيان من النحو، إن هذه الأية ختام لشؤون المواريث والوصية للحث على العمل بها ترغيبا وترهيبا، كما ختمت آية إيتاء اليتامى أموالهم بأية إن الذين يأكلون.

علم التاريخ: قال أبو اسحاق في الإفادات والإنشادات قال لي الاستاذ الجليل أبو سعيد بن لب حفظه الله تعالى: سئلت عن قوله تعالى في سورة النساء ومن يطع إلى قوله خالدين، ومن يعص الله إلى قوله خالدا، فجمع أولا وأفرد ثانيا، وأجبت بأن الجنة لما كان لأهلها فيها اجتماعات، وليست فيها فرقة، جاء قوله خالدين اعتبارا بالمعنى الحاصل في الجنة من الاجتماع، ولما كان أهل النار على الضد من هذا، فكل واحد منها في تابوت من نار حتى يقول أحدهم ليس في النار إلا هو، جاء قوله خالدا فيها اعتبارا بهذا المعنى، فعرضت على شيخنا الاستاذ الفقيه المفيد أبي عبد الله الفخار هذا السؤال فأجاب عنه، بأنه ذكر في الاولى جنات متعددة لا جنة واحدة، فقال ندخله جنات والضمير المنصوب في ندخله، وإن كان مجموعا في المعنى فهو في اللفظ مفرد، والمفرد من حيث هو مفرد لايصح أن يكون في جنات متعددة معا، فجاء خالدين لرفع هذا الإيهام اللفظي، فهو اعتبار لفظي ومناسبة لفظية، وإن كان المعنى صحيحا، وأما الأية الثانية فإنما فيه نار مفردة فناسبها الإفراد في خالدا هـ تكميل وقال البقاعي قال خالدين فيها تبشيرا بكثرة الواقع عند هذه الحدود.

علم الاثر: ومن يعص الله ورسوله قال مجاهد فيما اختصر من المواريث فهي على هذا في المسلمين، وقال عكرمة عن ابن عباس من لم يرض بقسم الله ويتعد ماقال الله، وقال الكلبي يعني ومن يكفر بقيمة المواريث ويتعد حدوده استحلالا فهي على هذين في الكافر.

علم الحديث: في الصحيح عن النعمان بن بشير رفعه الحل بين لخ واخرج الامام أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجة عن أبي هريرة رفعه أن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة سبعين سنة فإذا أوصى وجار في وصيته ختم له بشر عمله فيدخل النار، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار سبعين سنة فيعدل في وصيته فيختم له بخير، فيدخل الجنة، ثم يقول أبو هريرة اقرأوا إن شئتم: تلك حدود الله إلى قوله عذاب مهين، وعنه (ص) من قطع ميراثا فرضه الله تعالى قطع الله جل وعلا ميراثه من الجنة هـ.

وفي الصحيح من مات من أمتك لايشرك بالله شيئا دخل الجنة. وفي حديث انه قال لخطيب قال ومن يعصهما بيس خطيب القوم أنت، والله أعلم بأسرار كتابه وفحوى خطابه هـ.

ح.ع.د:1755.

في رحاب الحديث

الحديث الثاني والخمسون: فضل صلة الرحم

■ إعداد الأستاذ: عبد الله بوغوتة

نص الحديث:

عن إبراهيم بن عبد الله بن قارظ أن أباه حدثه أنه دخل على عبد الرحمن بن عوف وهو مريض فقال له عبد الرحمن وصلتك رحم إن النبي (ص) قال: " قال الله عز وجل: أنا الرحمن خلقت الرحم وشققت لها من اسمي فمن يصلها أصله ومن يقطعها أقطعه فابته أو قال من يبتها أبته " رواه أحمد.

تخريج الحديث

هذا حديث صحيح، رواته رواة الشيخين، أخرجه البخاري في الأدب المفرد (ج1/ص33/ح53)، وابن حبان في صحيحه(ج4/ص316/ح1907). وأبو داود في سننه، في الزكاة، باب ما في صلة الرحم(ج2/ص133/ح1694). وابن حنبل في مسنده ج1/ص191/ح1659 ..واورده الشيخ زكرياء عميرات في كتاب "الأحاديث القدسية الصحيحة" باب فضل صلة الأرحام، ص:156 ورمز إلى صحته وغيرهم.

سند الحديث

حدثنا يزيد بن هارون: هو أبو خالد يزيد بن هارون بن زاذى الحافظ القدوة شيخ الإسلام السلمي مولاهم الواسطي ولد سنة118، ومات بعد أن كف سنة ست وماتين(206).

قال بن المديني: ما رأيت أحفظ من يزيد بن هارون وقال يحيى بن يحيى: يزيد أحفظ من وكيع، وقال أحمد: كان يزيد حافظا متقنا. وقال العجلي: يزيد ثقة ثبت متعبد حسن الصلاة جدا، وقال أبو حاتم: يزيد ثقة إمام لايسأل عن مثله.

أخبرنا هشام الدستوائي: هو الحافظ الحجة أبو بكر بن أبي عبد الله سنبر الربعي مولاهم البصري التاجر كان يبيع الثياب المجلوبة من ستواء، فسمي بها.

قال شعبة: ما في الناس أحد . أقول . أنه طلب الحديث يريد به الله إلا هشاما الدستوائي، وقال أبو داود الطيالسي: هشام الدستوائي أمير المؤمنين في الحديث، وقال أحمد بن حنبل: ما يكون أحد أثبت منه أما مثله فعسى، توفي سنة أربع وخمسين ومائة(154) وكان ثقة ثبتا في الحديث حجة.

عن يحيى بن أبي كثير: هو أبو نصر يحيى بن أبي كثير الإمام الطائي مولاهم اليمامي أحد الأعلام. قال أبو حاتم ثقة إمام لايروي إلا عن ثقة وروى وهيب عن أيوب السختياني قال ما بقي على وجه الأرض مثل يحيى بن أبي كثير. مات سنة اثنتين وثلاثين ومائة (132).

عن إبراهيم بن عبد الله بن قارظ: ويقال عبد الله بن إبراهيم ابن قارظ بن أبي قارظ واسمه خالد ابن الحارث بن عبيد بن تيم بن عمرو بن الحارث الكناني المدني، روى له البخاري في الأدب والباقون سوى بن ماجة، صدوق من الوسطى من التابعين.

أن أباه: وهو عبد الله بن قارظ القارظي، من كبار التابعين، لقي الصحابة، لم يكتب عن حياته الكثير، نظرا لتداخل اسمه باسم ابنه، واشتهار ابنه عنه.

حدثه أنه دخل على عبد الرحمن بن عوف: هو أبو محمد عبد الرحمن بن عوف بن عبد عوف ابن عبد الحارث بن زهرة بن كلاب القرشي الزهري، أحد العشرة المشهود لهم بالجنة وأحد الستة أصحاب الشورى الذي أخبر عمر عن رسول الله (ص) أنه توفي وهو عنهم راض، ولد بعد الفيل بعشر سنين، وأسلم قديما قبل دخول دار الأرقم وهاجر الهجرتين وشهد بدرا وسائر المشاهد. وكان ممن يفتي على عهد رسول الله (ص)، مات رضي الله عنه، سنة اثنتين وثلاثين (32)وعاش اثنتين وسبعين(72) سنة ودفن بالبقيع وصلى عليه عثمان ويقال الزبير بن العوام، وله 65 حديثا.

أهمية الحديث

هذا الحديث من الأهمية بمكان، إذ أن رسول الله (ص) وهو يرويه عن ربه، يبين ما لصلة الرحم من أهمية، ومكانة عظيمة عند العظيم المنان، وهذه إشارة إلى اهتمام الإسلام بالروابط الاجتماعية الأقرب فالأقرب، وإن أحسن الناس، أحسنهم لرحمه.

مفردات الحديث

"الرحمن": اسم من أسماء الله الحسنى، ومعناه، أنه تعالى هو ذو الرحمة الواسعة الشاملة، المتعطف برحمته، وجلائل نعمه على جميع خلقه.

"خلقت":الخلق: التقدير والخالق، في صفاته تعالى: المبدع للشيء، المخترع على غيرمثال سبق.

"الرحم" بالكسر: بيت منبت الولد ووعاؤه، وهو القرابة، أو أصلها وأسبابها.

"شققت": قال الإسماعيلي:المعنى أن الرحم اشتق اسمها من اسم الرحمن، فلها به علاقة وليس معناه أنها من ذات الله تعالى عن ذلك.

"يصلها":وصل يصل صلة: إيصال ما أمكن من الخير ودفع ما أمكن من الشر بحسب الطاقة.

"أصله": بالرحمة والسداد وكل ما هو من فضله إحسانه تعالى، ومايليق بجلاله سبحانه.

"يقطعها": سواء بالإمساك عن البر والإحسان، أو الاعتداء والإيذاء وهو أخطر درجة.

"أقطعه": الجزاء من جنس العمل فمن فعل ذلك استحق غضب الله وعقابه.

"فابته": بمعنى القطع والبتر، وهو غاية في الزجر والترهيب، لأن الفعل شنيع.

المعنى العام

جاء الإسلام الحنيف ليبني المجتمع الإسلامي القوي المتكافل، المتآخي والمتعاون، والدعوة الإسلامية في حد ذاتها دعوة من شأنها تقوية الصلة بين المسلمين ورفع لواء الإسلام بين المجتمع.

إن صلة الرحم من محاسن الأخلاق التي حث عليها الإسلام ودعا إليها وحذر من قطيعتها. فقد دعا الله عز وجل عباده بصلة أرحامهم في تسع عشرة آية من كتابه الكريم، وأنذر من قطع رحمه باللعن والعذاب في ثلاث آيات. ولهذا دأب الصالحون من سلف الأمة على صلة أرحامهم رغم صعوبة وسائل الاتصال في عصرهم. وأما في وقتنا المعاصر فرغم توفر مختلف وسائل النقل والاتصال كالهاتف والبريد والأنترنيت، التي ينعم بها كثير من الناس ولله الحمد إلا أنه لايزال هناك تقصير في صلة الرحم إذ لم يستغل ماسخر الله من تلك الوسائل في صلة الرحم. وأن الواحد منا قد يشد الرحال إلى بلد بعيد للسياحة أو التجارة... ولكنه يتثاقل عن زيارة لأحد أرحامه وهو في نفس مدينته إن لم أقل في نفس حيه. وإن أدنى الصلة أن تصل أرحامك ولو بالسلام، ولهذا جئنا بهذا الحديث لعلنا نتدارك الأمر، فنصلح مافسد، ونتعظ ونعتبر، ونقوم إلى عمل يرضي الرحمن...

1. الله تعالى هو الرحمن: إن الله سبحانه وتعالى رؤوف رحيم بعباده، فرحمته وسعت كل شيء، فهو ذو الرحمة الواسعة الشاملة، وهو المتعطف بجلال نعمه وفضله وإحسانه، وعفوه وكرمه على جميع خلائقه، فسبحانه هو الرحمن الرحيم استوى على عرشه وتجلى على خلقه باسم الرحمن، وليس باسم المتكبر الجبار.

2. معنى الرحم: الرحم تطلق على الأقارب، وهم كل من بينه وبين الآخر نسب سواء كان يرثه أو لا، وسواء كان ذا محرم أو لا.

قال القاضي عياض: الرحم التي تقطع وتوصل، وتبر، إما هي معنى من المعاني ليست بجسم، إنما هي قرابة ونسب تجمعه رحم امرأة والدة ويتصل بعضه ببعض، فسمي ذلك الاتصال رحما.

3. حكم صلة الرحم: قال القاضي عياض في شرح النووي على مسلم: ولاخلاف أن صلة الرحم واجبة في الجملة، وقطيعتها معصية كبيرة، قال: والأحاديث في الباب تشهد لهذا ولكن الصلة درجات بعضها أرفع من بعض، وأدناها ترك المهاجرة وصلتها بالكلام ولو بالسلام، وتختلف باختلاف القدرة والحاجة، فمنها واجب، ومنها مستحب، فلو وصل بعض الصلة ولم يصل غايتها لايسمى قاطعا، ولو قصر عما يقدر عليه وينبغي له، لايسمى واصلا.

ولقد اتفق علماء الإسلام على أن صلة الرحم واجبة، وان قطيعتها حرام، من الكبائر، وأن أقل درجات الصلة الكلام، وأن الحكم بالوجوب يرجع إلى الحالة والحاجة، فمن كان له أخ غني وعم فقير معدم، فيكفيه مع الأخ السلام والكلام، أما العم فلا يعتبر واصلا له إلا إذا أعطاه من ماله إن كان قادرا.

وكما تكون الصلة بالمال والزيارة،تكون بعيادة المريض،وإجابة الدعوة، والتهنئة بما يسر والتعزية في المصائب.

4. الرحم التي تجب صلتها: قال القاضي عياض: واختلفوا في الرحم التي تجب صلتها، فقيل هي كل رحم محرم بحيث لو كان أحدهما ذكرا والآخر أنثى حرمت منكاحتها (أي الزواج بها)، فعلى هذا لايدخل أولاد الأعمام وأولاد الأخوال وقيل هو عام في كل رحم من ذوي الأرحام في الميراث، يستوي في ذلك المحرم وغيره.

قال النووي في شرحه على مسلم: وهذا القول الثاني هو الصواب واعترض على هذا الكلام القرطبي في تفسيره وقال: وهذا ليس بصحيح، والصواب أن كل مايشمله ويعمه الرحم تجب صلته على كل حال... وبالجملة فالرحم على وجهين: عامة وخاصة، فالرحم العامة رحم الدين، ويجب مواصلتها بملازمة الإيمان والمحبة لأهله ونصرتهم، والنصيحة وترك مضارتهم والعدل بينهم، وأما الرحم الخاصة وهي رحم القرابة من طرفي أبيه وأمه، فتجب لهم الحقوق العامة وزيادة مثل النفقة وتفقد أحوالهم...

5. معنى الصلة ومعنى القطيعة: الصلة هي إيصال ما أمكن من الخير، ودفع ما أمكن من الشر حسب الطاقة والاستطاعة، ومعنى القطيعة كما عرفها الزين العراقي: هي الإساءة إلى الرحم، وقال غيره تكون القطيعة، بترك الإحسان، وإنه لايلزم من نفي الصلة وجود وثبوت القطيعة، لأن علاقة المرء مع رحمه على ثلاث درجات:

أ . واصل: وهو الذي يصل من قطعه، ويعطي من منعه.

ب . مكافئ: وهو الذي يعطي من يعطيه، ويصل من يصله.

ج.قاطع: وهو الذي لايصل ولايوصل، ولايعطي ولايعطيه غيره، وأشد منه من يصله غيره وهو يقاطعه، ويعطيه غيره وهو يمنعه، وكما تقع المكافأة بين الجانبين، فإنها تقع القطيعة والجفاء من الجانبين.

6. فضل صلة الرحم: إن صلة الرحم قربة عالية، وعمل جليل، عظيم الأجر عند الله سبحانه وتعالى لأن صلة الرحم يجنى من ورائها السعة في الرزق والبركة في العمر والرسول (ص) يقول: "من أحب أن يبسط له في رزقه وينسا له في أثره فليصل رحمه"، وهي من ثمرات الإيمان الصحيح وعلامة من علامات الصدق والإخلاص، فعن أبي هريرة (ض) قال: قال رسول الله (ص): "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليصل رحمه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت"، وإن من أبر البر أن يقابل المؤمن قطيعة أرحامه وأقاربه بالصلة، وجهلهم بالعلم، وسفاهتهم بالحلم، وقسوتهم بالرحمة واللين، وإساءتهم بالعفو والصفح الجميل. فقد جاء رجل إلى النبي (ص) فقال: "يارسول الله إن لي قرابة أصلهم ويقطعونني وأحسن إليهم ويسيؤون إلي وأحلم عنهم ويجهلون علي، فقال: " إن كنت كما قلت فكأنما تسفهم المل . أي الرماد الحار. ولايزال معك من الله ظهير عليهم مادمت على ذلك".

إن صلة الأرحام تقوي الروابط وتزيد من الألفة والمحبة وتكثر الصفاء والمودة بين الأهل والأقارب فيكون الأفراد إخوانا متحابين وأعوانا في الخير متناصرين، تغمرهم النعمة وتغشاهم الرحمة وتشملهم السعادة، وتلك قوة في بناء الأمة وتوحيد صفوفها وجمع كلمتها، وفي هذا يقول النبي (ص): "إن الله ليعمر للقوم الديار ويكثر لهم الأموال وما نظر إليهم منذ خلقهم بغضا لهم لصلتهم أرحامهم".

7. جزاء قطيعة الرحم: إن قطيعة الرحم كبيرة من كبائر الذنوب التي يستحق صاحبها النار والعياذ بالله إذا لم يتب ويرجع عن قطيعته، لأن الله جعل قطيعة الرحم مثل الإفساد في الأرض، وكل ذلك شر عند الله وعند العباد، فقال تعالى: "فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم"، وروي عن أبي هريرة (ض) أنه قال: "إني سمعت رسول الله (ص) يقول: إن الرحمة لاتنزل على قوم فيهم قاطع رحم".

والكلام في هذا الموضوع طويل، وما أحوجنا إليه في زماننا المفتون أهله هذا، ونسأل الله العلي القدير أن يجعلني وإياكم من الذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل، والحمد لله رب العالمين.

فوائد الحديث

1. الله تعالى رحمن رحيم.
2. رحمك هو كل من بينك وبينه قرابة قربت أو بعدت.
3. صلة الرحم واجبة في ديننا الحنيف.
4. قطع الرحم من أخطر المعاصي وكبائر الذنوب.
5. لكل من الواصل والقاطع جزاء في الدنيا والآخرة كل سحب عمله.

والله أعلم بالمراد وهو الهادي إلى سواء السبيل.

حديث المنابر

القلب السليم

■ إعداد الأستاذ: أحمد بودهان

الخطبة الأولى:

الحمد لله رب العالمين، الذي أمرنا أن نكون متحابين مسالمين، وحثنا على التقوى باجتناب المنهيات والامتثال للمأمورات، وجعل قلوبنا منبعا للخيرات والحسنات وفعل الطاعات إذا عهدناها بالذكر والموعظة والعبادات، حتى تصير قلوبنا آمنة مطمئنة منيبة سليمة وحذرنا من القلوب المريضة خلقيا بسبب الغفلة والنسيان والانغماس في الملذات.

نحمده سبحانه وتعالى ونشهد أنه الله الذي لاإله إلا هو وحده لاشريك له ونشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله (ص)وبعد:

عباد الله: إنه من المتفق عليه علميا وأخلاقيا، أن الأمراض التي تصيب الناس على نوعين:

أمراض بدنية عضوية مادية محسوسة، يعرفها الأطباء وتعالج على أيدي أطباء الأبدان المختصين.

وأمراض أخلاقية معنوية نفسية روحية، تعرف عن طريق سيرة الانسان وسلوكه المذموم وسمعته غير اللائقة وتعامله غير المرغوب فيه مع الناس وهذه تعالج على أيدي أطباء الأرواح من المربين والوعاظ، والمرشدين في مجال التوعية والتوجيه الديني الرباني الحكيم.

وإذا كان النوع الأول من الأمراض البدنية تكاد تستقل بأعضائها وأسبابها ومسبباتها في البداية قبل استفحالها كترتيب النتائج عن المقدمات. فإن النوع الثاني من الأمراض الخلقية كصفة من الصفات السلبية كالرياء والحسد والكراهية والقساوة، والبخل، والكبر، والنفاق، والتكبر، والسخرية بالناس، والفسق، والعقوق،..الخ..هي راجعة أساسا إلى منبعها ومصدرها الأول وهو القلب باعتباره منبع الشر أو الخير فيما يريد وما لايريد. فإذا كان ما يريده شرا في تعامله مع الناس كالصفات السلبية المذكورة، فهو قلب مريض، وإذا كان مايريده خيرا في تعامله كالصفات الإيجابية المضادة للصفات السلبية المذكورة، مثل التحلي بأجتناب المنهيات، والامتثال للمأمورات كالصبر والخوف والرجاءو والشكر والتوكل والتفويض والجود والمحبة، والرحمة، والتواضع، والحياء،الخ.. فهو قلب سليم لقوله (ص) "ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب..."

والمفروض في المسلم خاصة أن يكون قلبه سليما وذلك بالتخلي عن المنهيات، والتحلي بالامتثال للمأمورات كما سبق في الصفات الخلقية الفاضلة والخاصة بالقلب السليم.

وإذا كان قلبك، أيها المسلم، سليما خلقيا حسب الصفات السلوكية الفاضلة المذكورة فاحمد الله واشكره، وحافظ على ذلك بزيادة الطاعات وفعل الخيرات، والحسنات والإكثار من العبادات التي تقربك إلى الله، فبشراك وسعداك يوم لقاء الله (يوم لاينفع مال ولابنون إلا من أتى الله بقلب سليم) سورة الشعراء/الآية:88، وليكن في علمك ويقينك أن الله تعالى نوه بقلبك السليم هذا وقلوب أمثالك من ذوي القلوب السليمة في نصوص كثيرة في القرآن فوصف هذا القلب تارة ب:(السليم) كما في الآية المذكورة والآيات الأخرى(وإن من شيعته لإبراهيم إذ جاء ربه بقلب سليم) سورة الصافات/الآية:84، ووصفه تارة بالقلب المنيب في قوله سبحانه: (من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب ادخلوها بسلام..)سورة ق/الآية:37.33.

ووصفه تارة بالقلب المطمئن وبالقلب السكين وبالقلب اللين، وبالقلب الممتحن المتقي، وبالقلب الوجل..الخ انظر بالترتيب سورة الرعد/الآية:28، سورة الفتح/الآية:4،سورة الزمر/الآية:28، سورة الحجرات/الآية:3، سورةالأنفال/الآية:2.

أما إذا كان قلبك، أيها المسلم، مريضا خلقيا أو به بعض من تلك الأمراض الخلقية السلبية فحاول أن تعالجه على يد أطباء الأرواح من المربين الربانيين، وذلك بالاستماع إلى الموعظة الحسنة وانشغال اللسان والقلب بذكر الله، وتلاوة القرآن، وتعهد بيوت الله، ومجالسة العلماء والأولياء والأتقياء، والصالحين، والمبادرة إلى التوبة النصوح، حتى يلين قلبك، ويستيقظ من غفلته، وينتعش ويحيى بعد أن كان ميتا" أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها...)سورة الأنعام/الآية:122.

وليكن في علمك، أيها المسلم، أن القلوب الغافلة عن ذكر الله قد تصدأ كما يصدأ الحديد وبذلك تموت معنويا ولاتحيى إلا بذكر الله كما جاء في الحديث.

كما أن القلب المريض المنغمس في الذنوب والشهوات، تنكث فيه نكث سوداء واحدة تلو الأخرى حتى يسود معنويا لا لونيا، وفي هذا المعنى يقول رسول الله (ص) : "إن المؤمن إذا أذنب ذنبا كانت نكتة سوداء في قلبه فإن تاب واستغفر صقل منها، وإن زادت زادت حتى يغلف بها قلبه فذلك الران الذي ذكره الله في كتابه: "كلا بل ران على قلوبهم" رواه الترمذي والنسائي وابن ماجة وابن حبان في صحيحه والحاكم عن أبي هريرة، فكن أخي المسلم، دائما، على حذر وراقب قلبك بالعلاج الروحي المعنوي المذكور حتى لايغلف بالران ويصدأ فيصبح غير سليم.

واعلم أن الله توعد أصحاب هذه القلوب الخبيثة بالعذاب الشديد يوم القيامة، ونعت مثل هذه القلوب بنعوت وصفات شتى كلها تعبر عن سوء أحوال أصحابها مع الله "يوم لاينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم..." فوصفها بالقلوب المريضة مرضا خلقيا في قوله سبحانه: "في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا"..الخ سورة البقرة/الآية:10، وبالقلوب المتقلبة في قوله تعالى : "ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما يومنوا به أول مرة، ونذرهم في طغيانهم يعمهون" سورة الأنعام/الآية:110.

ونعتها بالقلوب المتكبرة في قوله سبحانه وتعالى: "كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار" سورة غافر/الآية:35.

وبالقلوب المريضة اللدودة في قوله تعالى : "ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام" سورة البقرة/الآية:204، ووصفها بالقلوب الآثمة والقلوب المختومة والغافلة والعمياء والمشمئزة والمقفلة، والواجفة، والقاسية، والمشتتة، وذات الران...الخ، انظر بالترتيب سورة: البقرة:283، سورة الجاثية:23، سورة الكهف:28، سورة الحج:46، سورة الزمر:45، سورة محمد:24، سورة النازعات:8، سورة الحج:53،كذلك اقرا سورةالنور:50 وسورة الزمر:22، وسورة محمد:29، وسورة الحديد:16 وسورة الحشر:14، وسورة التطفيف:14.

وقد توعد الله أصحاب هذه القلوب المريضة معنويا وخلقيا وسلوكيا بالعذاب إذا لم يتوبوا ويبادروا إلى علاج قلوبهم بالرجوع إلى الله حتى تصير سليمة فبادر، أيها الأخ المسلم ، بمراقبة قلبك وصيانته من كل هذه الأمراض وعالجه بالموعظة والذكر وفعل الصالحات والتقرب إلى الله بخالص العبادات تفز يوم لقائه.

نفعني الله وإياكم بالقرآن العظيم وبأحاديث سيد الأولين والآخرين، وأجارني وإياكم من عذابه المهين وغفر لي ولكم ولجميع المسلمين آمين. والحمد لله رب العالمين.

الخطبة الثانية:

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه . وبعد:

عباد الله: تحدثنا معكم باختصار في موضوع: القلب السليم" وذكرنا بالأمراض الخلقية التي يمكن أن نصاب بها في قلوبنا من خلال سلوكنا ومعاملاتنا مع الله ومع غيرنا كما ذكرنا بطرق الوقاية وطرق العلاج من تلك الأمراض المعنوية وذلك بالرجوع إلى الله قلبا وقلباً عن طريق العمل الصالح، والاستماع إلى الموعظة والمبادرة إلى التوبة، حتى لانتعرض لذلك الوعيد الشديد الذي توعد الله به الغافلين عن ذكره من ذوي تلك القلوب المريضة، أما ذوو القلوب السليمة فسعداهم وبشراهم يوم لقاء الله "يوم لاينفع مال ولابنون إلا من أتى الله بقلب سليم".

وبهذه المناسبة ونحن نتحدث في موضوع القلب السليم "والقلب المريض" خلقيا لاننسى أن خطر القلوب المريضة لاينحصر في ضرر صاحبه، فقط، بل يتعدى أثره الخطير إلى من حوله فيؤذي الجميع فصاحب القلب المريض بالنفاق أو الكبر، أو الرياء، أو الزور، أو الحسد، أو الغش، أو الكذب..الخ، لابد وأن ينعكس سوء تصرفه هذا على من حوله فيؤذيه، بنفاقه وتكبره وحسده وخداعه وهذا أخطر ما في الأمر... أما صاحب القلب السليم المتصف بالتواضع والمحبة والرحمة والتقوى والجود والإيثار وحب الله وحب رسول الله وحب العباد فلابد أن يؤثر سلوكه الفاضل فيمن حوله إيجابيا وهذا هو المفروض الذي ينبغي أن يسود سلوك المسلمين وبالتالي، فإن سلامة المجتمع في سلامة القلوب وفساد المجتمع في فساد القلوب.

فكن . أخي المسلم . ذا قلب سليم تسلم يوم لقاء ربك ولاتكن ذا قلب مريض حتى لاتتعرض لعقاب الله وتذكر قوله سبحانه وتعالى :"يوم لاينفع مال ولابنون إلا من أتى الله بقلب سليم"

ويذكر بعض الحكماء أن رجلا طلب من غلامه أن يذبح له شاة فيطبخ له أحسن مافيها، فطبخ له القلب فأكله، وفي الغد طلب منه سيده نفس الطلب لكنه قال: "اطبخ لي أخبث ما فيها، فطبخ له القلب أيضا، فسأله عن سر هذا، فقال له الغلام الحكيم: "إن القلب ياسيدي هو منبع الخير إذا صلح، وهو . أيضا . منبع الشر إذا فسد.

اللهم لاتزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب.

اللهم ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار.

اللهم طهر قلوبنا من كل وصف يباعدنا عنك ياأرحم الراحمين.

اللهم لاتجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم.

اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

رسالة وإشارة:

فضل القرآن وترتيله

إعداد الأستاذ: عبد الله بن الطيبي كديرة

أخي الحبيب .. القرآن الكريم كلام رب العالمين الذي ليس كمثله شيء من نور ذاته عز وجل .. غير مخلوق ..أكد الله تعالى هذا الفضل حين قال وقوله الحق « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرايته خاشعا متصدعا من خشية الله ...» الجبل صخر جلمود يتصدع حين يتحمل أمانة تلاوة القرآن وترتيله وفهمه وتدبره وتطبيقه والعمل به.. يخشع لأنه يخشى إن لم يحسن القيام بالتكليف وعليه أن يظلم ويجهل..

وحمل الإنسان لمسؤولية الأمانة بتكاليف القرآن في أوامره ونواهيه فعلا وترك قمة التكريم لهذا الإنسان.. هو شغله الذي له خُلق ، وبه تميز.. هو ذكره له لا يفتر عنه في لحظة من ليل أو نهار ، قعود أو قيام ، حركة أو سكون ، عمل أو فراغ... هو نفسه ذكره لله .. هو نفسه عزه ورفعته.. فقد أخرج الإمام الترمذي رحمه الله عنه صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم « من شغله القرآن وذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين... وفضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه ». نشتغل بالقرآن والذكر.. والقرآن أفضل الذكر .. لانفتر ولا نمل ولا نسأم .. فتلك غاية وجودنا وذاك مبرر حياتنا ... وعلمه بأحوالنا يغنيه عن سؤالنا ... وهو عين السؤال وحق السؤال ... إنه يحب أن يسأل ولا يتبرم بإلحاح سائل ... وهو عين العطاء.. وقد بدأ بالوجود ليتجلى منه الجود.. ووالى الإمداد منذ الإيجاد إلى يوم المعاد... وعد منه لا يخلفه بدليل كلامه المسطور، وببرهان التحقق فيما نحياه من هذا الكون المنظور .. وكل خلقه من كلماته.. خلقه وأمره..« إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون». بدون هذا الفهم تكون الفتن المتتالية .. فقد أخرج الترمذي رحمه الله أيضا، عنه صلى الله عليه وسلم « .. ستكون فتن كقطع الليل المظلم، وذلك حين يهجر القرآن فلا يتلى ولا يرتل ولا يتدبر، وقد سأل علي رضي الله عنه :«وما المخرج منها يارسول الله ؟» والفتن نيران مستعرة تصهر .. وهي ألوان من العذاب بما اكسبت أيدي الناس تقهر، وهي شدائد تقلب المظهر على المخبر.. وتعكس المخبر على المظهر.. إنها الأهواء والعجب والوله والحيرة ،إنها صرف الحق إلى الباطل وصرف الباطل إلى الحق ..إنها لَيٌ أعناق الآيات المحكمات لتبدو وكالمتشابهات .. إنها الفرقة والتشرذم والحرب واتباع خطوات الشياطين من الإنس والجن، إنها تكشف عن أنيابها حين يتولى أمور الناس شرارهم من النهابين والمختلسين ومستغلي النفوذ والسلطة لأكل الأموال بالباطل وللسطو على الأعراض والاعتداء على الحرمات إنها التزييف والتحريف والتزوير ... إنها البلاء على إطلاقه وبكل أنواعه وطرائقه وأصنافه ومستوياته .. حين يصيب الأفراد والفئات وحين يعم ويطم .. إنها الاضطراب بتبلبل الأفكار والعقائد والملل والنحل... إنها العذاب والضلال والوسواس والجنون السائد .. والدواء في القرآن والمخرج بالقرآن وله وفيه تجارب الماضين، والخبر اليقين عن الآتين.. والحكم الفصل بين المختلفين .. وحكمه فصل .. يفرق بالعدل والحق بين أهل الخلاف .. ويسوي بالحق بين من لم يتبين لهم النور من الظلمة في الاختلاف .. حقه قاطع لا راد له.. وحكمه نهائي لا معقب عليه .. تعنو له الأعناق والوجوه وتبهت الجبابرة وتذل أمام حججه.. التاريخ والواقع يشهد أن على تركه قاصم الظهور.. والاهتداء بغير أنواره ضلال في متاهات من أوغل فيها لا يحور.. هو الصلة المتينة المكينة بين الله وخلقه لتستقيم حياتهم في الغيب والشهادة ..عربي مبين معجز في مبناه ومعناه ، لايرتفع عنده تأويل برأي ، ولا يمل عالم من استبصار كنوزه واستنباطها لنشرها بين الناس لتخشع عندها نفس كل تقي.. علمه إعجاز شامل كامل في كل المجالات..

كلما أعطاه مؤمن من وقته وتدبره وترتيله أعطاه ما تراه عينه وماالاتراه، وماتسمعه أذنه وما لا تسمعه ، وما يخطر على قلبه وما لا يخطر في معاشه ومعاده .. هو السبق والصدق والعدل والأجر .. وهو دعوة الهدى الواقية من الفتن بكل ألوانها .. ومن وقع فيها كان هو مخرجه منها بكل يقين ، وذلك هو جواب سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم لعلي رضي الله عنه وأرضاه: « كتاب الله تعالى: فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم، وحكم مابينكم هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله ، هو حبل الله المتين، ونوره المبين، والذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا تتشعب معه الآراء، ولا تشبع منه العلماء ، ولا يمله الأتقياء، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، وهو الذي لم تنته الجن إذ سمعته أن قالوا : إنا سمعنا قرآنا عجبا ، من علم علمه سبق، ومن قال به صدق، ومن حكم به عدل، ومن عمل به أجر، ومن دعا إليه هدي إلى صراط المستقيم».

أخي الحبيب ، مأدبنا اليوم رقص وطبل وزمر ولغو ولهو ولعب.. وقد تكون أشياء أخرى لا داعي لذكرها.. فالأليق أن تسمى مجرد(حفل) يجتمع فيه قوم ليأكلوا ويشربوا ويلهوا بمناسبة يعلنونها أو يسرُّون .. أما (المأدبة) التي تعلمنا في لغتنا العربية العظيمة ، لغة القرآن، أنها تؤدب بطعام وشراب يعدان لمدعوين يجتمعون في حلال ليطعموا من حلال ويرتووا من حلال، ويسمعوا ويروا حلال طيبا ويقضوا وقتا طيبا يؤجرون فيه وعليه ولا يؤزرون.. لأن الأصل الذي اشتقت منه تسمية (المأدبة) هو (الأدب) ومعناه رياضة النفس بالتعلم والتعليم والتهذب والتهذيب على ما ينبغي من مكارم الأخلاق ، وإغناء التجربة المهنية بما ينبغي لذوي صناعة أو فن أن يغنوا به تجاربهم ويتمسكوا به ليرفعوا من مستوى أخلاق مهنتهم ، ويعلوا من شأنها، ويكثر دخلهم منها ... ومعناه أيضا الجميل العذب من الشعر والنثر والعلم والمعرفة ، وهذا تحلو به المآدب وتصفو به المشارب ، وتطيب به المجالس .. ومن هنا فإن الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى صلى الله عليه وسلم حين أكد فيما أسند الأنباري رحمه الله عنه:« إن هذا القرآن مأدبة الله فتعلموا من مأدبته ما استطعتم...» نجلس فرادى وجماعات نتلوه ونتدارسه ، فهو النور المبين الذي يجلو حنادس الظلمات فينا ومن حولنا، ويشفي أسقام أجسادنا وأمراض نفوسنا وأدوات قلوبنا، وهو عصمة أمرنا في ديننا ودنيانا .. وقد فسر لنا صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم كيف نتعلم ما استطعنا من مأدبة الله فقال:« إن هذا القرآن حبل الله ، وهو النور المبين، والشفاء النافع، عصمة لمن تمسك به، ونجاة لمن اتبعه، ولا يعوج فيقوم، ولا يزيغ فيستعتب ولا تنقضي عجائبه، ولا يخلق عن كثرة الرد . فاتلوا فإن الله يأجركم على تلاوته بكل حرف عشر حسنات ، أما إني لا أقول:(ألم) حرف. ولا ألفيّن أحدكم واضعا إحدى رجليه يدع أن يقرأ سورة البقرة، فإن الشيطان يفر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة، وإن أصغر البيوت من الخير البيت الصفر من كتاب الله..

أخي الحبيب ، أخرج الإمام البخاري رحمه الله تعالى عنه صلى الله عليه وسلم «خيركم من تعلم القرآن وعلمه».. وليس هناك من لا يردد بيت الشعر الذي أطلقه شوقي صبيحة صدق وحكمة:

قم للمعلم وفه التبجيلا
كاد المعلم أن يكون رسولا

وأذكر أيها الحبيب أنني قرأت كتابا لأحد الحكماء من مربي الغرب عنوانه بهذا العنوان المؤثر الصادق، المعلم أمة وحده».. والقرآن الكريم وصف الخليل إبراهيم عليه السلام بأنه « أمة» ... وقد أكد الصادق المصدوق عليه صلاة الله وسلامه وعلى آله وصحبه أن الصديق أبا بكر رضي الله عنه وأرضاه يرجح إيمانه بإيمان الأمة كلها.. وقد تجلى ذلك من موقفه عند وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم، ومن موقفه عند بعث جيش أسامة بن زيد رضي الله عنهما، ومن موقفه من فتنة الردة.. وأنا على يقين ثابت راسخ مكين من أن « معلم القرآن، أمة وحده.. فماذا يتعلم معلم القرآن ومتعلمه؟ كدت أحتار في الجواب لما توارد على ذهني مما قرأته من الحقائق عنه، فلم أدر ماذا أقدم منها وما أؤخر.. ولا أكتمك أنه كان تحت يدي وأنا أكتب لك هذه الرسالة عدد من مجلة " الإعجاز العلمي" الغراء ، الصادرة عن الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة العدد الرابع عشر . ذو القعدة 1423 هـ .. ووقع عليه نظري فإذا بي لا أتردد في تسطير الجواب على البديهة : إنه يتعلم الهدى ودين الحق والحكمة ... إنه يتعلم دلالات الإعجاز الظاهرة الجلية.. إنه يتعلم أن عليه من الله بهذا القرآن حجة بالغة وبيانا ظاهرا وبرهانا ساطعا ، إنه يتعلم منه المنهج الراشد للحياة الرشيدة بعقيدة قويمة سليمة مكينة راسخة... إنه يتعلم منه علم نفسه ومجتمعه وإنسانيته ماضيا وحاضرا ومستقبلا ، إنه يتعلم منه علم الحياة وأسرار الأحياء، إنه يتعلم منه دقائق خفايا الكون من حوله مما أراه الله ويريه وسيريه من آيات الآفاق والأنفس غيبا وشهادة تأويلا بالتفسير حسب قواعده ومناهجه ، وبالمشاهدة تحققا بالاستقراء والملاحظة والتجارب بناء على مناهج مضبوطة متفق عليها مقررة.. وحيا الله الشيخ الفاضل الجليل العالم عبد الله بن عبد العزيز المصلح حين أكد موفقا مسددا مرشدا».. إن حقائق الإسلام في عقيدته وعبادته وشريعته وأخلاقه هي عين الحقائق العلمية...» وذاك ما يدعو إليه ويعلمه القرآن.. وبدعوته يجب أن ندعو ، وبعلمه يجب أن نتعلم ونعلم، وإلا فهو الضياع والتيه.. على أننا يجب ألا ننسى أنه كتاب هداية.. كتاب حكمة .. وتزكية وخير.. بكل معاني هذه الكلمات .. وإن من يقرأه ترتيلا وتدبرا ، سرا وجهرا ، آناء الليل وأطراف النهار ليعلم علومه، وتتجلى عليه أنواره، ويفيض الخير، والهداية منه إلى غيره.. بشرط الإيمان أولا قبل القراءة ، وخلالها، ثم بعدها عند التطبيق .. ولن يعدم خيرا من يقرأه من غير المؤمنين إن كانت نيته حسنة، وطويته سليمة.. أما من يقرأه ظالما له وللناس، ولنفسه من قبل ومن بعد فلن يزداد إلا ضلالا وخسارا هو ومن اتبعه.. فقد أخرج الإمام مسلم رحمه الله تعالى أن صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم « مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن مثل الأترجة (ثمر ذهبي اللون ذكي الرائحة .. أشبه بثمار الليمون الكبيرة) ريحها طيب، وطعمها طيب، ومثل المؤمن الذي يقرأ القرآن مثل التمرة لا ريح لها ، وطعمها حلو، ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن مثل الريحانة ريحها طيب، وطعمها مر، ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة لا ريح لها وطعمها مر» المؤمن الذي يتلو القرآن على أنه كتاب الله، ويترتله الترتيل الذي يحفظ له به معانيه وألفاظه، ويستمع له إذ تلي عليه وينصت متذكرا معتبرا متعظا.. يقيم صلاته وفق ما أمر الله به فيه، وفق ما بينه رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه .. سره معه كعلنه.. لا يشتري به ثمنا قليلا من مال أو جاه أو سلطان ، يقينه أنه يشتري بالائتمار بأوامره والانتهاء عن نواهيه ما عند الله ، فتجارته لن تبور ، وليوفينه الله أجره ، ولزيدنه من فضله، ويكفيه فضلا شهادة الله تعالى له بنص القرآن الذي هو كلامه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه بالإيمان، فقد قال عز وجل:« إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وانفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية يرجون تجارة لن تبور، ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله، إنه غفور شكور» سورة فاطر:الآية: 29 . 30الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته ، أولئك يومنون به» سورة البقرة/ الآية: 120.

تابع (ص7)

3) الاهتمام بالضروري من العلوم.

في نظرية المنهاج الإسلامي لا تقف العلوم جميعا في مرتبة واحدة من حيث أهميتها لكل دارس وإنما هناك علوم مقصودة لذاتها، وهناك علوم أخرى إنما تدرس لأنها وسائل ضرورية لدراسة العلوم الأولى. ومن هنا فدراسة العلوم الأولى يجب التوسع فيها بينما يجب الاقتصار في دراسة العلوم الثانية بما يفي بالغرض منها ومن أمثلة العلوم الأولى: العلوم الشرعية كالقرآن الكريم والتفسير والحديث والفقه والتوحيد. ومن أمثلة العلوم الثانية : اللغة والمنطق والحساب.. إلخ

وقد نادى أبو بكر بن العربي بالبدء بتعليم اللغة العربية وتقديمها على غيرها من المواد ثم الانتقال إلى دراسة القرآن الكريم ، لأن دراسته تسهل بعد معرفة اللغة العربية. وقد اعترف ابن خلدون بصواب رأي ابن العربي ، لكنه رأى ،صعوبة تنفيذه، لأن عادات المسلمين على عهده كانت لا تساعد على هذا ، فقد كانوا يبكرون بدراسة القرآن الكريم وحفظه للتبرك به وخوفا من أن يحدث للأطفال شيء في شبابهم يبعدهم عن حفظ القرآن، وبذلك تفوتهم فرصة حفظه، (المقدمة : صفحة 539)

وعلى كل حال ، فقد أوضح معظم فلاسفة الإسلام ومفكريه، أن تكليف المتعلمين بدراسة ما يفوق مداركهم وأفهامهم ، يؤدي إلى إجهادهم عقليا وجسميا ، وإلى كراهتهم الدائمة للعلم والتعلم . يقول ابن خلدون في المقدمة :« اعلم أن مما أضر بالناس في تحصيل العلم ، والوقوف على غاياته ، اختلاف الاصطلاحات في التعاليم وتعدد طرقها ، ثم مطالبة المتعلم باستحضار ذلك. وحينئذ يسلم له منصب التحصيل ، فيحتاج المتعلم إلى حفظها كلها ، أو أكثرها. ولا يفي عمره بما كتبه في صناعة واحدة إذا تجرد لها ، فيقع القصور ولابد، دون رتبة التحصيل»

وهكذا يهتم ابن خلدون بمراعاة قدرات المتعلم، ويرى أن النجاح يدفع إلى المزيد من النجاح في التعليم ، وأن الفشل يؤدي إلى فقدان ثقة المتعلم بنفسه وكراهيته للعلم والتعليم.

4) الاعتماد على الخبرة والتجربة في التعلم.

تسعى التربية الحديثة، إلى جعل عملية اكتساب المعارف نابعة من كيان المتعلمين أنفسهم، وذلك عن طريق إيقاظ اهتماماتهم بواسطة المناقشة الحرة التي تهدف إلى الحصول على الأفكار الجديرة

وهي ذات فعالية ، ينتج عنها غنى الأفكار حول موضوع الدرس وفحواه ، وكذلك وبواسطة المناقشة الموجهة التي ترنو للوصول إلى أكبر عدد من المعلومات عن طريق المتعلمين . بحيث يحاول المعلم إشراك كل فرد من أفراد الجماعة في النقاش الدائر، فتصبح العملية التعليمية عملية اتصال تعتمد على التفاعل. ومن شأن هذا أن يتطلب الخبرة والحنكة ممن يسعون للوصول إلى هاته الغاية.

وهذا ما كان قد توصل إليه علماء التربية في الإسلام منذ قرون ، إذ جعلوا من أهم قواعدهم الأساسية في بناء النظرية المنهجية الاعتماد على الخبرة والتجربة، واستعمال أساليب المناقشة والمناظرة والحوار بالأسئلة والأجوبة لما لها من تأثير حيوي كبير على المتعلم، وجعله قادرا على تعليم نفسه بنفسه، واعتياده جودة التعبير، والقدرة على الإقناع، وحرية الفكر، والاعتماد على النفس.

إن النظرية المنهجية في الإسلام وقد اتخذت من الخبرة قاعدة من قواعدها الأساسية سلكت عدة طرق في بنائها منها، المحاضرة، والمناقشة والمناظرة والحوار.

فالمحاضر يعد محاضرته ويدونها نقطة نقطة، ثم يتكلم عن كل نقطة فيها، وشرحها ويوضحها وضوحا كاملا ، وعلى الطلاب أن يناقشوا أساتذتهم ومعلميهم ، وعلى المعلمين أن يشجعوا طلبتهم على المناقشة والمناظرة ،ويوجبون عليهم التمرن عليها. ومن حق الطالب أن يخالف أستاذه في الرأي ، مع مراعاة التأدب والاحترام.

يرى ابن خلدون « أن المناظرة في المسائل العلمية ، تساعد على فهمها، وقدرة التعبير عنها، وينتقد صمت الطلاب، وعدم مناقشتهم فيما عرفوا من الأفكار، ويؤاخذ عليهم العناية بالحفظ أكثر مما تقتضيه الحاجة» (مقدمة ابن خلدون صفحة 534) ويرى الزرنوجي « أن قضاء ساعة واحدة في المناقشة والمناظرة أجدى على المتعلم من مكث شهر كامل في الحفظ والتكرار » (تعليم المتعلم الجزء الثالث صفحة 160).

وهكذا نرى أن نظرية المنهاج في التربية الإسلامية تعتمد على الخبرة والتجربة لاكتساب المعرفة للمتعلمين وذلك عن طريق المحاضرة والمناظرة والمناقشة وغيرها.

5) تنوع طرق التدريس ووسائله:

لقد رأى علماء التربية في الإسلام ضرورة تنوع طرق التدريس ووسائله، حتى تتناسب مع القدرات والميول المختلفة للمتعلمين ، فطريقة التدريس للأطفال يجب أن تختلف عن الطريقة التي تتبع مع الكبار وقد نادى بذلك الغزالي وقال « إن من أهم واجبات المعلم أن يعلم الطفل ما يسهل عليه فهمه، لأن الموضوعات الصعبة تؤدي إلى ارتباكه ونفوره من العلم»

وقد رأى ابن خلدون « ضرورة التدرج بالمتعلم شيئا فشيئا، كما رأى ضرورة الاعتماد على البدء بالإجمال، ثم الدخول إلى التفاصيل والجزئيات ، ورأى أن التحصيل المفيد إنما يحدث بثلاث تكرارات، وقد يحصل للبعض في أقل من ذلك بحسب ما يخلق له ويتيسر عليه » (مقدمة ابن خلدون صفحة 533) ، وقال أيضا في ذلك.« وقد شاهدنا كثيرا من المعلمين لهذا العهد الذي أدركنا يجهلون طرق التعليم وإفادته، ويحضرون للتعلم في أول تعليمه الوسائل المنغلقة من العلم ، ويطالبونه بإحضار ذهنه في حلها، ويحسبون ذلك مرانا على التعليم وصوابا فيه ، ويخلطون عليه بما يلقون من غايات الفنون في مبادئها ، وقبل أن يستعد لفهمها، فإن قبول العلم والاستعداد لفهمه ينشأ تدريجيا، ويكون المتعلم أول الأمر عاجزا عن الفهم بالجملة، إلا في الأقل ، وعلى سبيل التقريب والإجمال، والأمثال الحسية، ثم لايزال الاستعداد يتدرج قليلا قليلا حتى يتم التحصيل (ابن خلدون المرجع السابق صفحة 534) .

وقد رأى علماء التربية في الإسلام أيضا ضرورة العناية بالوسائل المعينة للفهم وضرب الأمثلة المحسوسة التي تعين المتعلم على الانتقال من المحسوس إلى المعقول حتى يسهل الفهم والإدراك على المتعلم.

ويعد المنهج الذي وضعه هارون الرشيد لمؤدب ولده الأمين من أفضل المناهج التي اشترك فيها أولياء الأمور مع المؤدبين. وقد عده ابن خلدون من أفضل مذاهب التعليم: قال هارون الرشيد:« ياأحمر ، إن أمير المؤمنين قد دفع إليك مهجة نفسه، وثمرة قلبه، فصير يدك عليه مبسوطة، وطاعته لك واجبة . وكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين، أقرئه القرآن، وعرفه الأخبار، وروه الأشعار، وعلمه السنن، وبصره بمواقع الكلام وبدئه، وامنعه من الضحك إلا في أوقاته.. ولا تمرن بك ساعة إلا وأنت مغتنم فائدة تفيده إياها، من غير أن تحزنه، فتميت ذهنه، ولا تمعن في مسامحته فيستحلي الفراغ ويألفه، وقومه ما استطعت بالقرب والملاينة. فإن أباهما فعليك الشدة والغلظة، (ابن خلدون المرجع السابق صفحة 541).

هذه باختصار بعض القواعد الأساسية التي بنيت عليها نظرية المنهج في التربية الإسلامية، والتي اشتقت من المصادر الرئيسية لبناء أي ثقافة وهي طبيعة الفرد ، وطبيعة المجتمع وطبيعة المعرفة.

النظرية التربوية في الإسلام
القواعد الأساسية في بناء النظرية المنهجية

2/2

■ إعداد: ذ. الغساسي

تتمة (ص6)

أخي الحبيب ، أنت مأمور من الله بنص القرآن« ورتل القرآن ترتيلا» سورة المزمل الآية 4 الخطاب المباشر لرسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم، وهو موجه إليك بواسطته.. إلا أنه لك حض وحث وتشجيع بقدر الاستطاعة.. والأجر وفير غزير كثير فضلا ونعمة ، وقد ذكرت لك منه اليسير مما استحضرته، وأذكر لك بعضه مما استحضره الآن« كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا» سورة الإسراء الآية 32. وأي نعمة أكبر من أن يحيا المرء حياته ثابت الفؤاد رابط الجأش والجنان مطمئن النفس.. إنها رحمة واسعة تشمل قارئ القرآن ومن حوله وماحوله.. تسع دنياهم لترافقهم إلى آخرتهم« وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون» سورة الأعراف الآية:204 ولعل في القرآن للتعليل لا للترجي..فما بعدها يقيني الوقوع.. وهو وعد من الله الذي لا يخلف وعده..

لعلك تسمع من يبرر هجره للقرآن بأنه يخشى اللحن والتحريف والتصنيف؟ والحق أنك مأمور بما تطيق، ومنهيٌ عن كل ما نهيت عنه.. وهجر القرآن أنت منهي عنه .. وقراءة ما تيسر منه هو ما أنت به مأمور.. والمهارة في كل شيء مكتسبة وإن في قراءة القرآن وتلاوته وترتيله .. وأنت مأجور في كلتا الحالتين، وان تفاوت الأجر..وبالاجتهاد يدرك المأمول « الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة والذي يقرأ القرآن ويتتعتع فيه (يتردد ويصيبه العي) وهو عليه شاق له أجران» (البخاري ومسلم).

أخي الحبيب ، القرآن كلام الله، وصفات كل كلام من صفات من تكلم به ، فهو حي من حياة الله الحي، به ندعى لما يحيينا .. والحياة جمال ورونق وعطاء ولا تعطى الحياة أولا تستمد إلا من الحي .. والقرآن كائن حي اليوم في دنيانا هذه الفانية ، وهو حي أيضا في آخرتنا تلك الباقية.. ومن يحيى به اليوم وله يلق الحي القيوم غدا يوم القيامة مع القرآن شاهدا وشفيعا، فقد أكد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم وهو الصادق المصدوق« يجيء صاحب القرآن يوم القيامة فيقول :رب حله ، فيُلبَسُ تاج الكرامة، ثم يقول : يارب زده، فيلبس حُلة الكرامة، ثم يقول : يارب ارض عنه، فيرضى عنه، فيقال له: اقرأ وارق ، ويزاد بكل آية حسنة».

ولهذا فلتعتبرأن كرامتنا -أمة وشعوبا وقبائل وأفرادا- من إكرامنا للقرآن .. وبقدر كرامته فينا تكون كرامتنا، فالقرآن غطاؤنا من كل شر وضر ووزر وفتنة وضلال ... والقرآن عزتنا في ديننا ودنيانا وأخرانا... ولن ترتفع للفرد منا منزلة بين الناس أو بين يدي الحق عز وجل إلا بالقرآن .. ولن تستعيد أمتنا كرامتها (منزلتها العالية) بين الأمم إلا إذا عادت إلى القرآن تستظل بظله وتأوي إلى كنفه عبادات ومعاملات ، شعيرة وشريعة ، حقيقة وتحقيقا...

فيا أخي الحبيب ، لنقرأ القرآن ولنتله ولنرتله ولنصحبه ولنتخلق به فقد بشرنا البشير صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم « يقال لصاحب القرآن: اقرأ وارتق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آية تقرأها » أبو داود. وعلى قدر أهل العزم تأتي العزائم ، ليستحقوا أن يرتقوا أعلى درجات المكارم.. وهذه أيضا بشرى لرسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم: «يقال لصاحب القرآن إذا دخل الجنة : اقرأ واصعد، فيقرأ ويصعد بكل آية درجة حتى يقرأ آخر شيء معه».

أخي الحبيب ، ليس للقرآن في كماله وجماله حد يوقف عنده... وإنما هي قدراتنا نحن، وإراداتنا وعزائمنا نحن في الاستمداد منه.. هي المحدودة وكل يغتنم حسب قدرته على الأخذ والاستيعاب .. فلنقرأ ولنرق فتلك غاية وجودنا .. ولنصعد بقوة فذلك قدرنا في كدحنا إلى ربنا حتى نلقاه.. وفي يميننا الكتاب.. محتواه ومضمونه أطهر كتاب .. عشنا به أعزة مكرمين في دنيانا .. ونلقى الله به وهو عنا راض، ونحن عنه غير مفتو نين ولا ضالين ولا مضلين في أخرانا .. والله يتولى هدانا ..

والسلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته.

بين يدي الموضوع

وقل رب زدني علما

أولوا العزم من الرسل

تحت هذا العنوان سنتطرق بحول الله إلى أولي العزم من الرسل للتعريف بفضلهم ومقامهم عند الخالق عز وجل، وذلك لاتخاذ العبر من سلوكهم وسلوك أممهم معهم للعمل مع العاملين على تثبيت العقائد في النفوس والتذكير بالعلاقة بين الخالق والمخلوق اعتمادا على ما جاء في القرآن الكريم.(شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم إن الدين عند الله الإسلام) سورة آل عمران / الآية :18.

■ الأستاذة: نبوية الناصري

خلق الله الناس وجعلهم قبائل وشعوبا وأمما ليتعارفوا ويتعايشوا مصداقا لقوله تعالى:(يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا) سورة الحجرات / الآية: 13.وجعل لتقييمهم وتقييم أعمالهم وإيمانهم وأخلاقهم ميزانا واحدا لا يختلف في تقديره مهما اختلف الناس في شتى العصور، فقال عز وجل:(إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير) سورة الحجرات/ الآية: 13. ولتكون العدالة الإلهية شاملة وواضحة للخلق جميعا، فقد أرسل الله الرسل مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل فقال تعالى:(وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) سورة الإسراء / الآية:15. وإن كان الرسل قد أرسلوا برسالة واحدة وكلهم يدعون إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، إلا أن التفضيل بينهم كان بميزان آخر، هو العزم والصبر كقوله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم في سورة الأحقاف:(فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ولا تستعجل لهم . كأنهم يوم يرون مايوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار. بلاغ. فهل يهلك إلا القوم الفاسقون) الآية:35.

وقد نزلت هذه الآية عند مخاطبته . صلى الله عليه وسلم . بالصبر كما صبر أولو العزم من الرسل على تكذيب قومهم لهم وعدم التعجيل بنزول العقاب.

وقد نص الله تعالى على أسماء أولي العزم من بين الأنبياء في آيتين من سورتي الشورى والأحزاب لقوله تعالى:(شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه، كبر على المشركين ما تدعوهم إليه، الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب) سورة الشورى/ الآية :13. وكذلك لقوله تعالى بما جاء في سورة الأحزاب / الآية :7.(وإذ أخذنا من النبيئين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقا غليظا).

ميثاق الله على الأنبياء:

جاء في سورة آل عمران قوله تعالى:(وإذ أخذ الله ميثاق النبيئين لما ءاتيتكم من كتاب وحكمة، ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه، قال أأقررتم وأخذتكم على ذلكم إصري، قالوا أقررنا، قال فاشهدوا وانا معكم من الشاهدين) الآية: 81 . قال قتادة والربيع بن أنس والسدي،" إصري" : أي ثقل ما حملتم من عهدي، أي ميثاقي الشديد المؤكد. وهكذا يخبر الله عز وجل ، بصفة خاصة، أولي العزم الخمسة ثم بقية الأنبياء أنه أخذ عليهم العهد والميثاق في إقامة دين الله تعالى وإبلاغ رسالته والتعاون والتناصر والانفاق على ذلك . فهذا العهد والميثاق أخذ عليهم بعد إرسالهم عليهم السلام.

شهادة الأنبياء على قومهم:

جاء في قوله تعالى:(ويوم نبعث من كل أمة شهيدا، ثم لا يؤذن للذين كفروا ولاهم يستعتبون) سورة النحل/ الآية :84. هنا يخبرنا عز وجل عن شأن المشركين يوم معادهم في الدار الآخرة، وأنه يبعث من كل أمة شهيدا وهو نبيها يشهد عليها بما أجابته فيما بلغها عن الله تعالى ، ثم لا يؤذن للذين كفروا ، أي في الاعتذار لأنهم يعلمون بطلانه وكذبه كقوله «هذا يوم لا ينطقون ولايؤذن لهم فيعتذرون» فلهذا قال : ولا هم يستعتبون.

وفي مقام آخر في القرآن الكريم جاء قوله تعالى:

(ويوم نبعث في كل أمة شهيدا عليهم من أنفسهم، وجئنا بك شهيدا على هؤلاء، ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين) سورة النحل /الآية :89

والمقصود " بهؤلاء" في هذه الآية هم قوم سيدنا محمد، صلى الله عليه وسلم ، فهو صلى الله عليه وسلم شهيد على قومه بعد أن نزل عليه الكتاب تبيانا لكل شيء، وهدى وبشرى للمسلمين الموحدين.

ولمقام سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم تشريف خاص في هذا الموقف من الأنبياء لقوله تعالى: « فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد، وجئنا بك على هؤلاء شهيدا. يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثا» سورة النساء / الآية :41 يخاطب الخالق عز وجل نبيه الكريم ويذكره: فكيف حال الكفار إذا جئنا من كل أمة بشهيد يشهد عليها بعملها وهو نبيها، وجئنا بك يامحمد؟ والشهيد هنا يقصد به الأنبياء عليهم السلام، كما قال تعالى: (وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجيء بالنبيئين والشهداء) الآية. صدق الله العظيم.

تأملات وخواطر

محمد الخضر الريسوني

مواصفات الانسان في المجتمع الإسلامي

ينظر الاسلام للمجتمع على أنه كائن عضوي كبير، والأفرادهم أجزاء هذا الكائن، ومن ثم يصبح دور الفرد في المجتمع هو دور الجزء الذي يمارس وظيفة محددة تتوافق مع وظائف الأجزاء الأخرى من أجل أن يحقق النظام أهدافه . والاسلام في مفهومه لا يلغي كيان الفرد كإنسان له مواصفات متميزة، ويدمجه في الجماعة دمجا كليا، بل يحفظ للفرد مكانته الشخصية ووجوده الذاتي ، ويجعل اندماجه مع المجتمع في الحدود الوظيفية التي تهيء للمجتمع تحقيق أهدافه.

لقد وضع الاسلام المبادئ التي تضمن أن يكون سلوك الفرد في الاطار الذي يخدم مصلحة الجماعة ، وفي نفس الوقت يشبع حاجات ورغبات الانسان الفرد، ومن ذلك إقراره مجموعة من الضوابط للضمان الوصول إلى أقصى درجة من التعاون بين الافراد بما يضمن مصلحة العمل وخير المجتمع وفرض أن يكون التعاون من أجل الخير للجميع، والتاريخ حافل بشتى الأمثلة عن الاهتمام بالمشاكل الاجتماعية للعاملين، والهادفة من أجل تهيئة المناخ المناسب للعمل ورفع الروح المعنوية ، وفي ظل هذا المفهوم نرى أن الاهتمام بهذه المشاكل ليس ترفا أو منحة ولكنه حق للعامل من أجل أن يتفرغ للعمل والابداع ، ومن الأمثلة الرائعة في هذا المجال ما يروى عن عمر بن عبد العزيز وهو أمير المؤمنين كتب إلى عبد الحميد بن عبد الرحمن وهو بالعراق : أن أخرج للناس أعطياتهم " رواتبهم" فكتب إليه عبد الحميد : إني قد أخرجت للناس أعطياتهم وقد بقي في بيت المال مال "فائض" فكتب إليه إني قد قضيت عنهم، وبقي في بيت المال مال فكتب إليه أن انظر كل من أدّ أن في غير سفه فاقضي عنه، وكتب إليه » أن انظر كل بكر "عزب" ليس له مال ، فشاء أن يتزوج فزوجه واصدق عنه، فكتب إليه:" إني قد زوجت كل من وجدت وقد بقي في بيت مال المسلمين مال، فكتب إليه : أن أنظر من كانت عليه جزية "خراج" وضعف عن أرضه فأسلفه ما يقوى به على عمل أرضه، فإن لا نريدهم لعام ولاعامين».

إن نظرة الاسلام للانسان بجانبيها " الفرد والكائن الاجتماعي" توضح انه كائن متميز يجمع بين جملة من المواهب والخصال المتلازمة في شخصه والمتفاعلة بعضها مع بعض في تنظيم حركي يجمع تلك الخصال والمواهب.

ومن أبرز ما يدعو إليه الاسلام لبنا مجتمع صالح سليم رفضه لسياسة الاحتكار من أجل تحقيق ربح أكبر ، يقول الرسول ، صلى الله عليه وسلم، «من احتكر الطعام أربعين يوما فقد برئ من الله وبرئ الله منه» وهو يرى أن التنظيم الجيد هو الذي يخدم المجتمع الذي يعمل فيه ويحرص على المصلحة العامة قبل حرصه على تحقيق أهدافه فلا يأتي بعمل يكون فيه إضرار بالمجتمع .

وفي حرصه على مصلحة المسلمين مدح أولئك الذين يؤثرون المصلحة العامة على مصلحتهم الخاصة ، مصداقا لقوله تعالى في سورة الحشر:«ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون».

وقد روي إنه لما أهديت لعبادة بن الصامت هدية، وكانت معه في الدار اثنى عشر من أهل بيته، فقال عبادة : اذهبوا إلى آل فلان فهم أحوج إليها مني، فقال الوليد بن عبادة: فأخذتها فكلما جئت أهل بيت يقولون: اذهبوا بها إلى آل فلان فهم أحوج منا إليها، حتى رجعت الهدية إلى عبادة قبل الصبح.

هذه العلاقات الاجتماعية الانسانية لم تكن نابعة من قرابة أو نسب أو خوف من سلطة، أو طمع في منحة ، ولكنها نابعة من الإيمان الذي هو أساس العلاقات الانسانية والموجه الحقيقي للنفس الانسانية إلى التسامي والرقي.

المفاهيم الوجودي عن القرآن الكريم

الحلقة الخامسة

■ إعداد الدكتور: بنعيسى بوبوزان

رابعا: الشريعة الإسلامية والهلاخا/الشريعة اليهودية:

ادعى جولدتسيهر بأن هناك تأثيرا واضحا لشريعة اليهود في الشريعة الإسلامية. حسب زعمه، وذكر من ذلك أمرين، هما: طريقة ذبح الحيوانات ومراسيم غسل الأموات. ورد بدوي بأن مراسيم غسل الأموات كان قبل اليهود بآلاف السنين، حتى لدى الشعوب البدائية، ولم تكن يوما طقسا خاصا باليهود. أما ذبح الحيوانات فهي طريقة بسيطة جدا في الشريعة الإسلامية، بينما هي معقدة جدا لدى اليهود، ولايقوم بها إلا (الشوحت)، وهو رجل يجب أن تتوفر فيه شروط خاصة تسهب في سردها كتب فقههم.

في الفصل السادس خصص الدكتور بدوي حديثه عن "الصابئون في القرآن" وقد بادر في أول حديثه إلى القول بأن كلمة (الصابئون) هي من أصعب المسائل التي اعترضت سبيل المفسرين وهم يبحثون عن التعريف الدقيق لهذه الكلمة التي ذكرت ثلاث مرات في القرآن الكريم: في سورة البقرة، في الآية:62، والمائدة في الآية:69، والحج في الآية:17.

بعد ذلك انتقل إلى عرض آراء المستشرقين والرد عليها الواحدة تلو الأخرى على النحو التالي:

1. يعتقد المستشرقان سبرنجر وبيدرسون بأن (الصابئون)هم الحنفاء.وقد رد بدوي مستعينا بالشهرستاني في كتابه "الملل والنحل" بأن الصابئين والحنفاء طائفتان متعارضتان كليا، لأن الحنفاء موحدون التوحيد الذي دعا إليه إبراهيم الخليل عليه السلام، بينما الصابئة هم عباد الكواكب، وهو ما رفضه إبراهيم عليه السلام صراحة كما ورد ذلك في القرآن الكريم في سورة الأنعام، الآيات (79.75)، كما أن القرآن لم يذكر أن للصابئة كتابا مقدسا، بينما ذكر أن لإبراهيم صحفا متلوة كما هو معلوم.

2 يذهب المستشرقون هورفيتز وهايتريش شيدر وبالأخص كارادوفو إلى أن الصابئة هم طائفة من المعمدانيين المندائيين في بابل، أخذ عنهم. كما يزعم كارادوفو خصوصا. قصص الأنبياء والوضوء والصلاة، لكن الدكتور بدوي رد عليه بأن هذا الرأي يخلط بين الطوائف المعمدانية وعباد الكواكب، كما يخلط بين تعميد المندائيين والوضوء للصلاة، وخلط كذلك بين قصص الأنبياء والأساطير الواردة في كتب المندائيين المقدسة، وبخاصة كتابهم:الجينزا Ginza.ثم عاد بدوي إلى هاينريش ليتوقف مع مزاعمه التي يدعي فيها بأنه ربما سمع النبي (ص) عن المندائيين من الصحابي الجليل سلمان الفارسي (ض)، لأنهم كانوا منتشرين في بلاد فارس موطنه. فيكون بذلك لفظ (الصابئة) مأخوذا من غطس الشيء في الماء، وهو أهم طقوس المندائيين. لكن الدكتور بدوي رد بأن هذا الاشتقاق يصعب تبريره لأن معنى لفظ (صبأ) في اللغة العربية منذ القدم هو التخلص ويطلق مجازا عن ترك ديانة والدخول في أخرى، وحتى وإن أخذنا هذا المعنى المجازي الأخير، فأي الديانات تركها هؤلاء الصابئة ليعتنقوا ديانة أخرى، ويؤسسوا دينا جديدا؟فهل تركوا الديانة اليهودية كما يدعي القديس إبيفان Saint Epiphane؟ لكنه لايقدم دليلا يدعم به رأيه.

بعد ذلك انتقل بدوي إلى تعاريف المفسرين المسلمين للصابئة، فمنهم من يرى بأنهم قوم يشبه دينهم أهل الكتاب كما يذهب إلى ذلك الجوهري، ومنهم من يرى بأن دينهم يشبه دين النصارى، ويزعمون بأنهم كانوا على دين نوح عليه السلام، كما يقول الأزهري. ومنهم من يقول بأنهم قوم يعبدون الملائكة كما يرى البيضاوي.

ولكن الوقفة الطويلة لبدوي كانت مع الشهرستاني الذي استخلص من كلامه بأنه يميل إلى القول بأن الصابئة تأثروا بالثنائية الإيرانية، وبعد أخذ ورد قال بدوي: "وحتى لو مزجنا بين هذه الطوائف اليهودية الثلاث، فإننا لا نصل إلى نتيجة تجعلنا نفسر الثناء على الصابئين في القرآن، هل هذا يعني أن التوصل لحل لغز (الصابئون) في القرآن أمر مينوس منه؟ نعم، هذا خلاصة الكلام في الموضوع".

وفي الفصل السابع توقف الدكتور بدوي مع "الرسل في القرآن:نقد لابتكار المستشرق فينسنك"، حيث بدأ حديثه بالسخرية اللاذعة على عادته من خيالات هذا المستشرق الذي زعم في إحداها بأن النبي (ص) تلقى فكرة الرسل المبشرين والمرسلين إلى أقوامهم عبر قنوات مسيحية، حيث تساءل بدوي: "ألم تكن فكرة الرسل الداعين إلى ديانة والمبعوثين إلى شعب ما موجودة لدى اليهود؟" وبعد ما عرض المواضع التي ذكرت فيها كلمة (الرسل) في العهدين القديم والجديد وما يقابلها في اللغة العبرية واليونانية، عقب بدوي قائلا: "ولو كان فعلا لمحمد (ص) أن يطلع على فكرة الرسل المبعوثين لشعوب، لفعل ذلك متأثرا باليهود وليس بالمسيحيين، ولا نقول بهذا أن محمدا (ص) قد اطلع على فكرة الرسل من أولئك وليس من هؤلاء، لكننا نحاول فقط إثبات أنه لم يأخذ هذه الفكرة من أحد"، ينضاف إلى ذلك أن مفهوم الرسول في الإسلام يختلف جذريا عن مفهومه في المزاعم اليهودية وكذا المسيحية، خاصة وأن الرسل الإثنى عشر في المسيحية، هم رسل المسيح وليسوا رسل الله، لذلك سماهم الله عز وجل في القرآن الكريم بحواريي عيسى عليه السلام ولم يسمهم لا رسلا ولا أنبياء، وعليه فإن "مفهوم الرسول في الإسلام يكتسي أهمية كبيرة تفوق كثيرا أهميته في اليهودية والمسيحية، لهذا نقول إن - ولامجال للمقارنة بين المسيحية والإسلام- الإيحاء بأن الإسلام قد اقتبس من المسيحية غباء صرف".

وفي الفصل الثامن تحدث د.بدوي في موضوع "قراءة لتصور خيالي للقرآن" حيث عمد فيه إلى قراءة ثالثة للقرآن الكريم. فبعد أن عرض قراءة يهودية الإسلام، ثم قراءة ثانية مسيحية له، عرج بدوي على سبيل الدعابة والتهكم. على حد تعبيره. على القراءة اليونانية للقرآن.

فقد ذهب بعضهم إلى أن القرآن الكريم استعار مفاهيم معينةمن الفكر اليوناني، وبخاصة من الفكر الأرسطي، ويتلخص هذا التأثير اليوناني حسب هذا الزعم فيما يلي:

1. مفهوم الوسطية في الإسلام.
2 ثناء الله، عز وجل، على الإسكندر الأكبر في القرآن الكريم، وقد سماه بذي القرنين في سورة الكهف.
3 ورود تلميح إلى أسطورة (سيزيف) في سورة المدثر، الآية: 17.16.
4 أهمية الماء في الحياة، وهي فكرة طاليس الذي أكد على أن الماء أساس الكون، كما يظهر في قوله تعالى : "وجعلنا من الماءكل شيء حي" سورة النور/الآية:45.
5 وجود نزعة الأفلاطونية المحدثة التي تؤكد على أن النور هو المبدأ الأول للكون، وفي القرآن الكريم: "الله نور السماوات والأرض" سورة النور/ الآية:35.
6 وجود إشارة إلى النزعة الأبيوقورية الداعية إلى التركيز على اللذة والمتعة في الحياة، وفي القرآن الكريم: "وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا ومايهلكنا إلا الدهر" سورة الجاثية/الآية:24.

ولكن الدكتور عبد الرحمن بدوي الذي غربل اليونانية على نحو لم يسبق له مثيل اكتفى بالرد على هذه الخرافات قائلا: "حان الوقت الآن لنضع حدا لهذا المداعبة، وإلا لوقع صاحبنا اليوناني في نفس أخطاء هيرشفيلد وجولدتسيهر وهوروفيتز وآخرون".

وفي الفصل التاسع تحدث د.بدوي عن "البسملة، هل أصلها إنجيلي" فقد زعم نولدكه وشيفالي بأن "بسم الله الرحمن الرحيم" التي تبتدئ بها سور القرآن الكريم. عدا سورة التوبة .أصلها في الإنجيل في العهدين القديم والجديد، لكن رد بدوي جاء حاسما حيث قال بأنه بحث في العهد القديم دون جدوى للعثور على هذه الكلمة كعبارة للصلاة والعبادة كما هي عليه في القرآن الكريم.والمكان الوحيد الذي وجدها فيه في العهد القديم هو سفر الملوك الإصحاح188 الآية:24 "ثم تدعون باسم الهتكم وأنا أدعو باسم الرب يهوا -Yah wa."ثم علق ذلك قائلا: "يظهر جليا أن ليس هناك أي تشابه في هذا مع البسملة، ويجب أن يكون المرء أبله حين يدعي أن أصل البسملة: بسم الله الرحمن الرحيم، يرجع إلى هذه الآية الإنجيلية".

وفيما يتعلق بالعهد الجديد،فإن الموضع الذي يعتمد عليه كل من نولدكه وشيفالي هو الآية من الإصحاح الثالث من رسالة بولص إلى أهل كورنثا: "وكل ماعملتم بقول أو فعل، فاعملوا الكل باسم الرب يسوع شاكرين لله والأب به"، فعلق بدوي على ذلك قائلا: "فلنتساءل الآن: ما علاقة هذه الآية بالسملة؟ والجواب بسيط، لا علاقة، لدرجة أن هذه الآية متناقضة تماما مع مفهوم ومعنى البسملة، لكن تعنت نولدكه وشيفالي لاحدود له"، وقد تجاوزا إلى حد الزعم بأن للبسملة أصولا يهودية أيضا، لكنهما لم يستطيعا تقديم أي دليل على ذلك كما قال الدكتور بدوي، لذلك أضرب حتى المستشرقون المتعصبون عن الأخذ بهذا الزعم المغلوط.

وفي الفصل العاشر تحدث بدوي عن "فشل أي محاولة لترتيب القرآن ترتيبا زمنيا". ففي البداية تحدث عن جهود العلماء المسلمين في ترتيب القرآن الكريم بعد وفاة الرسول (ص)، ورغم محاولات عدة في هذا الباب إلا أن الاختلاف ظل بينهم في بعض المواطن، وقد رد بدوي هذا الاهتمام وهذا الاختلاف أيضا إلى علم الناسخ والمنسوخ.

وبعد ذلك انتقل إلى محاولات المستشرقين في ترتيب سور القرآن الكريم زمنيا، وقد بدأ بمحاولات المستشرقين نولدكه الذي اعتمد في ترتيبه على عوامل داخلية وأخرى خارجية. فأما الخارجية فتتركز أساسا على الحديث النبوي الشريف وكتب السيرة وكتب علم أسباب النزول. وأما الداخلية فتتمثل في الأسلوب والتشريعات التي تتدرج بتدرج نزول الوحي، وكذا موقف الإسلام من الديانات الأخرى سواء كانت سماوية أم وضعية وثنية. وقد لاحظ د. بدوي أن ما قام به نولدكه هو في الواقع سير على ماقام به المستشرق كوستاف فايل. وبعد المقارنة بين ماقام به هذان المستشرقان تبين لبدوي بأنهما لايختلفان كثيرا عن بعضهما البعض. وقد علق بدوي على نولدكه بخاصة بأن العوامل بنوعيها الداخلية والخارجية التي اعتمدها في ترتيبه ليست كافية لترتيب سليم لسور القرآن الكريم.

بعد ذلك توقف مع محاولة المستشرق جريم H.Grimme الذي ساير نولدكه في ترتيبه وإن خالفه في عدد السور المكية والمدنية. وبعده توقف بدوي مع المستشرق وليام مويير الذي لايختلف ترتيبه عن نولدكه إلا أن الخطأ الوحيد الذي وقع فيه. حسب بدوي، هو ادعاؤه التحديد والضبط في ترتيبه، وهو ما عجز عنه سائر المستشرقين.

ولايختلف حال المستشرق بلاشير عن غيره سوى أنه زاد الطين بلة حين حصل في ترتيبه المزعوم على 116 سورة بدلا من 114 سورة، وهو العدد المجمع عليه بين المسلمين وغير المسلمين، والسبب في هذه الزيادة لدى بلاشير هو تقسيمه لسورتين إلى نصفين.

وأما المستشرق ريتشارد بيل، فإنه رغم سيره على درب سابقيه من المستشرقين في ترتيب سور القرآن الكريم، إلا أنه وقع في أخطاء فاحشة مما جعل بدوي يعلق عليه قائلا: " ولم يكتف بيل بهذا القدر من المهاترات، بل زاد الطين بلة حين ادعى أن كلمة (نبي) هي في حقيقة الأمر كلمة مدنية، وأن إبراهيم لم يصبح نبيا إلا في المدينة، وأن كلمة (إسلام)و (سلم)، والاستعمال الديني لفعل (أسلم) ينتمي في الحقيقة إلى الحقبة المدنية، فكل هذه الادعاءات خاطئة".

وفي آخر هذا الفصل عقد بدوي خلاصة ذكر فيها بأن كل المحاولات التي قام بها كل من العلماء المسلمين والمستشرقين لترتيب سور القرآن الكريم زمنيا باءت بالفشل، بل إن العلماء المسلمين هم أكثر حصافة وحكمة حين اكتفوا بتقسيم سور القرآن الكريم إلى سور مكية وأخرى مدنية، ولذلك "نكتشف أنه من الأفضل التحلي بالحكمة وبالتروي والتواضع عند تناول مثل هذه المسألة".

وفي الفصل الحادي عشر تحدث بدوي عن "مشكلة الألفاظ غير العربية في القرآن" ففي بدايته تحدث عن اختلاف العلماء المسلمين حول اشتمال القرآن الكريم لألفاظ غير عربية، من ينفي هذا نفيا مطلقا كالإمام الشافعي والطبري والباقلاني وسواهم، وبين من يثبت وجود هذه الألفاظ كعبد الله بن عباس وأبي موسى الأشعري وسواهما، وبين الفريقين من يوفق بينهما، فيقول بتضمن القرآن الكريم لألفاظ أعجمية كانت قد عربت في اللغة العربية قبل مبعث النبي (ص)بكثير، لذلك أنزلت ضمن مانزل من الوحي لتعود العرب على استعمالها في لغتهم. وصاحب هذا الرأي هو أبو عبيدة القاسم بن سلام.

وقد أورد بدوي قائمة بهذه الألفاظ الأعجمية الواردة في القرآن الكريم مرتبة حسب اللغات اليونانية والفارسية والعبرية والسريانية والنبطية والأمهرية والهندية ولغة أهل المغرب ومجموع هذه الألفاظ خمسة وعشرون لفظا غير عربي، وقد اعتمد بدوي في إيراد هذه الألفاظ على الزركشي والسيوطي، إلا أن عددها لدى السيوطي وصل إلى مائة وثمانية عشر لفظا.

وما يلاحظ في هذا الفصل، هو أن بدوي ناقش الألفاظ غير العربية لدى العلماء المسلمين أكثر من مناقشة المستشرقين، إذ لم يشر إلى هؤلاء إلا عرضا مثل "توري" و "شيذله"، وربما لقلة بضاعتهم في هذا الشأن، وماتجدر الإشارة إليه هو أن بدوي أضاف إلى ماسطره العلماء المسلمون في هذا الموضوع، ألفاظا أصلها لاتيني مثل: القسطاس والبرج والكهف والقنطار والصراط، وإن كان العلماء المسلمون قد نسبوا بعضها إلى لغات أخرى.

كيف يخرج الإنسان من بين الصلب والترائب

■ إعداد الأستاذ:الحبيب بن محمود

سبق أن تحدثنا عن تكون الجنين، وعن النطفة التي يتخلق منها، وبقيت قضية هامة في حاجة إلى شرح وتفصيل، وهي واردةفي قوله تعالى:"فلينظر الإنسان مم خلق، خلق من ماء دافق، يخرج من بين الصلب والترائب" (الطارق:5،7)، فما الماء الدافق؟ وما المقصود بالصلب والترائب؟

ذكر الطبري أقوالا كثيرة نوجزها فيما يلي: "الترائب موضع القلادة من صدر المرأة، وقيل ما بين المنكبين والصدر، وقيل أسفل التراقي ، وقيل اليدان والرجلان والعينان، وقيل من بين صلب الرجل ونحره، وقيل الأضلاع التي أسفل الصلب، وقيل عصارة القلب، ثم قال: والصواب من القول في ذلك عندنا قول من قال هو موضع القلادة من المرأة حيث تقع عليه من صدرها. لأن ذلك هو المعروف في كلام العرب، وبه جاءت أشعارهم"(تفسير الطبري ج12،ص535).

وأضاف الزمخشري معنى آخر أبرز فيه مشاركة كل من الرجل والمرأة في تخليق الجنين حيث قال:"العظم والعصب من الرجل واللحم والدم من المرأة"(الكشاف،ج4،ص241).

وإذا انتقلنا إلى تفسير الرازي نقرأ فيه مايلي: "قال البعض: إن الولد مخلوق من الماء الذي يخرج من صلب الرجل وترائب المرأة، وقال آخرون: إنه مخلوق من الماء الذي يخرج من صلب الرجل وترائبه".وهو يشير إلى نظريتين علميتين قديمتين مختلفتين، الأولى ترى أن المرأة تساهم مع الرجل في تخليق الجنين (صلب الرجل وترائب المرأة) والثانية ترى أن الرجل وحده يقوم بذلك، وجسم المرأة لايعدو كونه حاضنا ومغذيا: (صلب الرجل وترائبه) ثم يورد الرازي المناقشة التالية: "واعلم أن الملحدين طعنوا في هذه الآية، فقالوا إن كان المراد من قوله تعالى :(يخرج من بين الصلب والترائب) الطارق:7.

أن المني إنما ينفصل من تلك المواضع فليس الأمر كذلك، لأنه إنما يتولد من فضلة العظم الرابع، وينفصل عن جميع أجزاء البدن حتى يأخذ من كل عضو طبيعته وخاصيته، فيصير مستعدا لأن يتولد منه مثل تلك الأعضاء، ولذلك فإن المفرط في الجماع يستولي الضعف على جميع أعضائه، وإن كان المراد أن معظم أجزاء المني يتولد هناك فهو ضعيف، بل معظم أجزائه إنما يتربى في الدماغ، والدليل عليه أن صورته تشبه الدماغ، ولأن المكثر منه يظهر الضعف أولا في عينيه، وإن كان المراد أن مستقر المني هناك فهو ضعيف، لأن مستقر المني هو أوعية المني، وهي عروق ملتف بعضها بالبعض عند البيضتين، وإن كان المراد أن يخرج المني هناك فهو ضعيف، لأن الحس يدل على أنه ليس كذلك (الجواب) لا شك أن أعظم الأعضاء معونة في توليد المني هو الدماغ، وللدماغ خليفة وهي النخاع وهو في الصلب، وله شعب كثيرة نازلة إلى مقدم البدن وهو التريبة، فلهذا السبب خص الله تعالى هذين العضوين بالذكر، على أن كلامكم في كيفية تولد المني، وكيفية تولد الأعضاء من المني محض الوهم، والظن الضعيف، وكلام الله تعالى أولى بالقبول" التفسير الكبير ج31،ص129، الفخر الرازي).

ولو عدنا إلى تفسير الرازي للماء الدافق والصلب والترائب، وأمعنا النظر فيه لوجدنا قد اعتمد على معلومات تشريحية قديمة نسبية، يعتريها النقص والخطأ والضعف، مثل: "المني يتربى في الدماغ والدليل عليه أن صورته تشبهه". فهذا استدلال ضعيف جدا. ويدحضه خروج اللبن الشديد البياض من جسم المرأة بدون أن يوجد فيه عضو له صورة مثل صورته، وإذا اكتفينا باللون فسنقول إنه يتربى في العظام، وهذا من المعلومات الخاطئة أيضا "وينفصل المني عن جميع أجزاء البدن حتى يأخذ من كل عضو طبيعته وخاصيته".

ولعله من المفيد أن نعرض الآراء التشريحية السائدة حول هذا الموضوع في زمن نزول القرآن، الجدير بالذكر أن أحبار اليهود ورهبان النصارى كانوا هم الموجهين للرأي العام، وكانوا يقدسون ويروجون آراء أبقراط وجالينوس وأرسطو وبطليموس، إن القرآن نزل على قلب نبي أمي في أمة أمية، بأسلوب فريد ومتيز، أثبت مفعوله السحري على نفوس أعلم العلماء وأجهل الجهلاء، والرسول (ص) نصح المسلمين بأن يخاطبوا الناس بما يفهمون، ويدعوا ما ينكرون موضحا لهم الحكمة من ذلك بقوله: :"أتحبون أن يكذب الله ورسوله".

كانت هناك مدرستان مختلفتان سادتا في القرون الماضية أكثر من ألف وخمسمائة سنة، الأولى ويرأسها أبو قراط وتلميذه جالينوس. وهو الحكيم الأول عند العرب. تقول بسبق التكوين ، بمعنى أن النطفة تحتوي على جزئيات آتية من جميع أنحاء الجسم عن طريق الدم، بحيث يتمثل فيها إنسان كامل صغير جدا، ويحتاج إلى تغذية الأم لكي يكبر ويصبح جنينا ويخرج إلى الدنيا، وسندا لهذه النظرية يفترض في الرجل الذي حرم من طرف من أطرافه أن يولد طفله ناقصا ذلك الطرف، وهذا مخالف للواقع، كان أرسطو يعتقد أن نطفة الرجل تتكون من رجال صغار تم تشكيلهم بالفعل، ولايمثل رحم المرأة سوى مأوى غذائي لهم (تاريخ الطب: جان شارل سورنيا، ص184).

وقد أورد الرازي في تفسيره هذه النظرية حين قال: "وينفصل المني عن جميع أجزاء البدن حتى يأخذ من كل عضو طبيعته وخاصيته".

أما المدرسة الثانية فتقول بالتخلق المتعاقب، وبحيث تتضمن النطفة بذاتها وبالقوة الأشكال التي يؤدي تحيينها بالتدريج، إلى مضغة أولا، ثم إلى كامل الجسم (تاريخ العلوم العام. القديم والوسيط،ص274 رينيه تاتون). وهذا الرأي أثبت العلم الحديث صحته، وورد صريحا في قوله تعالى: (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جلعناه نطفة في قرار مكين، ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين)المؤمنون:12،14.

ويعتقد أصحاب هاتين النطريتين أن المرأة تقتصر مساهمتها في تكوين الجنين على توفير المادة اللازمة لتكبيره تلك التي تحتوي على كل أجزائه بحجم صغير جدا فهي لذلك ليست أكثر من محضنة تغذي وديعة الرجل في رحمها. ومن هنا جاء تهميش دورها في النسب. وأسند الأبناء إلى آبائهم دون أمهاتهم، وهذا هو السر في اختفاء اسم المرأة عند وضع شجرة نسب عظيم من العظماء. وقد أثبت العلم الحديث بطلان هذا الاعتقاد، وقرر أن مساهمة الأم تساوي تماما مساهمة الأب في تكوين الجنين، بل تتفوق عليه بتغذية هذا الجنين من جسمها أثناء حمله، ومن لبنها بعد ولادته.

ولكي نفهم بوضوح مقدار مساهمة الأبوين في إكساب ابنهما صفاته الجسدية والذهنية نحتاج إلى التعرف على مايحدث في داخل الخلية الملقحة والمكونة من انصهار نواة نطفة الذكر مع نواة بيضة الأنثى. لقد لاحظ العالم فليمنج أنه توجد عصيات داخل كل خلية حية، لاتظهر بوضوح تحت المجهر إلا إذا لوناها بصبغة خاصة حتى تتميز على بقية الأجزاءالمحيطة بها، ولو لعها بهذه الصبغة سميت صبغيات، وباللاتيني "كروموزومات" اشتقاقا من "Croma" التي تعني اللون. ولاحظ فليمنج أن عدد هذه الصبغيات ثابت في كل نوع حيواني. فهو في الإنسان46، وفي البقر والماعز60، وفي الحصان والحمار66، وهكذا.. وبما أن السر الذي تودعه كل خلية أم ابنتها أثناء انقسامها وتكاثرها هو هذه الصبغيات، فقد افترض العلماء على حق أن في هذه الصبغيات تكمن كل المعلومات التي تجعل الخلايا تحافظ على وظائفها وأشكالها، وبالتالي تجعل الفأرة لاتلد إلا فأرا، والمرأة لا تلد إلا طفلا بشريا، وتجعل خلية عظمية لاتعطي إلا خلية عظمية، وخلية كبدية لا تعطي إلا خلية كبدية وهكذا... فالإنسان كان في البدء بيضة نتجت عن اتحاد خلية بيضية آتية من الأم مع خلية منوية آتية من الأب، هذه البيضة عبارة عن خلية واحدة صغيرة جدا إلى حد أنها لاتكاد ترى بالعين المجردة.

والملاحظ هنا أن كل خلية في الإنسان، سواء كانت في العين أو في الجلد أو في القلب، تحتوي على (46) صبغيا كما ذكرنا، نصفها جاء من الأب ونصفها جاء من الأم. ولكن الخلايا المعدة للتلقيح، عندما تمر بفترة النضج، يطرأ عليها انقسام اختزالي أو منطف يتحول من جرائه عدد الصبغيات من (46)إلى(23) فقط. ولولا هذه العملية لاضطرب النظام، وأصبح عددها يتصاعد باستمرار. فلو كان عددها في النطفة 46 وفي البيضة (46) كبقية خلايا الجسم لنتج عن ذلك طفل تحمل خلاياه (46+46 = 92) صبغيا، وفي الجيل الموالي سيرتفع العدد إلى 184(92+92) ... وهكذا إلى أن نصل إلى أعداد خيالية، فبفضل الانقسام الاختزالي فإن النطفة لا تحوي إلا 23 صبغيا، وكذلك البيضة، وعند التلقيح يتحقق العدد الصبغي الطبيعي (23+23 = 46)، ويظل العدد(46) لايتغير بالنسبة إلى جنس الإنسان في كل الأجيال، ورغم أن خلايا الإنسان تنقسم باستمرار طيلة حياته فإن الصبغيات تحافظ على عددها بفضل ميكانيكية خاصة لا مجال لذكرها هنا. ف (سبح اسم ربك الأعلى الذي خلق فسوى والذي قدر فهدى)الأعلى:1،3.

إن الخلية المنوية . أو النطفة . التي لايتعدى حجمها 1/80000 من حجم الخلية البيضية ويبلغ وزنها واحدا من المليار من الغرام، تحوي كل مايسهم به الأب من صفات لولده مسجلة أيضا (23) صبغيا، وهو قد يساوي تماما ما تسهم به الأم من صفات مسجلة أيضا ولو أردنا أن نترجم المعلومات الموجودة على هذه الصبغيات إلى كتابة لا حتاج الأمر إلى مئات المجلدات، وعندما يحدث التلقيح وتنصهر نواة النطفة مع نواة البيضة، يقابل كل كروموزوم من أحدهما نظيره من الآخر، ويتصالبان، ويتبادلان التأثير الوراثي بشكل تفاعلات كيميائية حسب قوانين محددة، فتتحدد بذلك ملامح وصفات ومواهب الكائن الحي الجديد الذي سيختلف تماما عن أبويه، قال تعالى: (إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج) الإنسان:2، فهل أدركت الآن معنى الأمشاج؟ إنه اختلاط صبغيات الذكر وصبغيات الأنثى وإنتاج صيغة وراثية جديدة لكائن جديد.

قبسات قرآنية

■ إعداد: محمد حراز

قال الله تعالى: « بسم الله الرحمن الرحين ألم. ذلك الكتاب لاريب . فيه هدى للمتقين ، الذين يومنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون. والذين يومنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون أولائك على هدى من ربهم . وأولائك هم المفلحون »صدق الله العظيم.

هذه الآيات من أوائل سورة البقرة، وهي سورة مدنية فضلها عظيم وثوابها جزيل، ويقال لها قسطاط القرآن، وذلك لعظمتها وبهائها ، وكثرة أحكامها ومواعظها، وقد تعلمها عمر، رضي الله عنه، بفقهها وما تحتوي عليه في إثنتي عشر سنة، وابنه عبد الله في ثماني سنين . وقال فيها ابن العربي: سمعت بعض أشياخي يقول : فيها ألف أمر وألف نهي وألف حكم وألف خبر.

(ألم) اختلف العلماء في هذه الحروف المقطعة التي في أوائل السور على قولين:

1 . هذا علم مستور وسر محجوب استأثر الله به، وعن أبي بكر الصديق، رضي الله عنه أنه قال : لكل كتاب سر وسر كتاب الله هذه الحروف) وقال الشعبي:(إنها من المتشابه نؤمن بظاهرها ونكل العلم فيها إلى الله) وقال الإمام الرازي:" وقد أنكر علماء الكلام هذا القول فقالوا لا يوجد في كتاب الله مالا يفهمه الخلق".

2 . المراد منها معلوم ، وذكروا ما يزيد عن عشرين وجها ، ومن أشهر هذه الأوجه:

كل حرف من هذه الحروف مأخوذ من اسم من أسماء الله الحسنى .

البصري وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار إليه للإيذان بعلو شأنه وكونه في الغاية القاصية من الفضل والشرف، فالمعنى أن ذلك الكتاب هو الكتاب الكامل وكأن ما عداه من الكتب في مقابلته ناقص، ومن المعلوم أن(ذلك) قد تستعمل في الإشارة إلى حاضر وإن كان موضوعا للإشارة إلى غائب كما قال تعالى : عن نفسه سبحانه:(ذلك عالم الغيب والشهادة) والقرآن وإن كان حاضرا نظرا إلى صورته ، لكنه غائب نظرا إلى أسراره وحقائقه فجاز أن يشار إليه كما يشار إلى البعيد الغائب.

ونفي الريب عنه يستلزم ضده وهو اليقين، فإن المتدبر في هذا الكتاب يكتشف الحق فيه وتطمئن نفسه وتسلم من الاضطراب والقلق والشك فيهتدي إلى الحقيقة الربانية.

(فيه هدى للمتقين) والهدى هو الدلالة الموصلة إلى البغية والهدى شاملة لكل ما تحصل به الهداية من الضلالة والانحراف في العقيدة والسلوك، ونلاحظ أنها جاءت نكرة لتشمل العموم فالقرآن هدى لجميع مصالح العباد في الدنيا والآخرة.

وإذا كان القرآن العظيم هدى لجميع الناس فإن الذين ينتفعون بهذه الهداية هم المتقون فقط، فاللام هنا للاختصاص، فأهل التقوى وهم وحدهم المستفيدون من هذه الهداية الربانية. ومما قيل في تعريف التقوى أن لا يراك الله حيث نهاك ولا يفقدك حيث أمرك.

وعرفها سيدنا علي كرم الله وجهه بقوله : التقوى هي الخوف من الجليل والعمل بالتنزيل والاستعداد ليوم الرحيل.

(الذين يومنون بالغيب) والإيمان هو ما وقر في القلب وصدقه العمل، وحقيقته التصديق التام بما أخبرت به الرسل المتضمن لانقياد الجوارح، ويدخل في الإيمان بالغيب الإيمان بجميع ما أخبر الله به من الغيوب الماضية والمستقبلية وأحوال الأخرة وكل ما أخبرت به الرسل عن ذلك.

(ويقيمون الصلاة) فلا يكفي الإتيان بمظاهر الصلاة فقط، بل لابد من إقامتها بشروطها وأركانها وواجباتها ومستلزماتها من التدبر والخشوع وحضور القلب. ولابد من الابتعاد الكلي عن مظاهر الفحشاء والمنكر.

(ومما رزقناهم ينفقون) والرزق هو الحظ وهو عند أهل السنة كل ما صح الانتفاع به، فمن صفات المتقين أنهم ينفقون باستمرار من كل ما عندهم من مال أو علم أو قوة أو فن أو وقت أو غير ذلك مما فيه فائدة للمسلمين . وفي هذه الآية إشارة إلى أن هذا الرزق ليس حاصلا بقوة البشر بل هو رزق الله تعالى ولذلك وجب الانفاق منه في سبيل الله لصالح الفقراء عن طريق فريضة الزكاة أو عن طريق التطوع بالصدقة.

ونفهم من هذه الآية ضرورة وجوب تحري الحلال في هذا الرزق كي يبارك الله تعالى فيه.

ونلاحظ تقديم مفعول الفعل للدلالة على كونه أهم فهم ينفقون منه رغم حبهم له.

وقد استعمل القرآن هنا (من) التبعيضية صيانة لهم ، فلم يوجب عليهم الله تعالى سوى البعض القليل من الإنفاق حتى لا يعجزوا وهي إشارة إلى النهي عن الإسراف والتبذير، وفي ذلك حماية للبيئة والطبيعة عن استنزاف خيراتها وتخريب ثرواتها بسبب المبالغة في الاستهلاك.

(والذين يومنون بما أنزل إليك) وهو القرآن والسنة بدون تفريق بينهما أو تأويل للنصوص القاطعة في الثبوت والدلالة.

(وما أنزل من قبلك) وهذا يشمل الإيمان بجميع الكتب السابقة خاصة التوراة والإنجيل والزبور ، فالمؤمنون لا يفرقون بين أحد من الرسل.

(وبالآخرة هم يوقنون) والآخرة اسم لما بعد الموت، وخصه بالذكر بعد العموم لأنه من أعظم أركان الإيمان. وقد قدم على الفعل للدلالة على أن أعمال المؤمنين في هذه الدنيا وحياتهم مؤسسة على مبدأ العقيدة الإسلامية ، فهم متيقنون بالجزاء الأوفى الذي ينتظرهم بعد الموت، ومن ثم فهم يخلصون أعمالهم لله تعالى ويؤدون مسؤلياتهم بكل صدق وإخلاص وإتقان فيسلم المجتمع من المشاكل والمصائب. وللإشارة فإن التاريخ يشهد أن كل الحضارات والمجتمعات التي لم تقم على أساس الإيمان بالله وباليوم الآخر فقد كان مصيرها الفناء والدمار المبكر.

(أولائك على هدى من ربهم) بمعنى على هدى عظيم، فالتنكير للتعظيم والتفخيم، وقد استعمل حرف (على) الدال على معنى الاستعلاء، وحينما يتحدث القرآن عن الضلالة يأتي بحرف (في) كما في قوله تعالى (وإنا أوإياكم لعلى هدى أوفي ضلال مبين) لأن صاحب الهدى مستعل بالهدى مرتفع به، وصاحب الضلال منغمس فيه محتقر.

(واؤلئك هم المفلحون) والفلاح هو الفوز بالمطلوب والنجاة من المرهوب ، وقد استعمل ضمير الفصل لإرادة حصر الفلاح فيهم دون غيرهم ، كما أتى بالتكرار لتأكيد صفة الفلاح المتحققة فيهم بعد أن أكد اتصافهم بالهدى.

ميثاق
الرابطة
صحيفة أسبوعية جامعة
العدد 1009
السنة 36
الجمعة 26 ذو الحجة 1423 هـ
الموافق 28 فبراير 2003 م

المدير المسؤول:
الأمين العام بالنيابة
الشيخ ماء العينين لاراباس

مدير النشر:
إدريس كرم

رئيس التحرير:
محمد الخضر الريسوني

التحرير:
محمد القاضي
مصطفى ودادي

الثمن:3 دراهم
رقم الإيداع القانوني: 1994/160
الترقيم الدولي:ISSN: 4348

عنوان البريد الالكتروني:
rabitat @iam.net-ma
موقع الانترنيت
www.rabitat. ma

الاشتراكات السنوية
داخل المغرب: مائة وخمسون درهما

الحساب البنكي:25201015549.01
وكالة بنك الوفاء-حي أكدال - الرباط

التصفيف والإخراج الفني:
ميثاق الرابطة
العنوان:107- شارع فال ولد عمير.
رقم 7- أكدال - الرباط
الهاتف: 51 03 67 037
الفاكس: 93 45 67 037
السحب:
مطبعة نداكوم - الرباط- المغرب.

ترتيب المواد لا يخضع إلا للمقتضيات الصحافية والتقنية

ميثاق الرابطة

العدد: 1009 الجمعة 26 ذي الحجة 1423 هـ .الموافق 28 فبراير 2003م

حالة الاضطراب في الاجتهاد الفقهي المعاصر

■ إعداد: د-بشرى شقوري

وقفة تأمل

انطلق الاجتهاد الفقهي مع بداية الدعوة الإسلامية ليواكب حياة المسلمين، وليعالج قضاياهم الواقعية والمصلحية، وذلك وفق المقاصد الكبرى للشريعة الإسلامية . وقد أصبح لزاما على الأمة الآن وأكثر من أي وقت مضى، التخلص من حالة التخاذل الثقافي والوهن الحضاري، وتأسيس الرؤية الثقافية على أساس النص المقدس المعصوم، وبيان أهمية الاجتهاد الفقهي والفكري في استيعاب قضايا الأمة ومعالجة مشكلاتها المعاصرة في ضوء النصوص الدينية ومكتسبات العقل وإبداعاته.

إن المقولة التي اشتهرت في الأدبيات الإسلامية المعاصرة، بأن الشريعة صالحة لكل زمان ومكان لا تكون إلا بتقديم المعالجات الإسلامية المناسبة لكل زمان ومكان، وهذه المعالجات لا تستطيع أن تحمل اسم" إسلامية " إلا إذا حافظت على ثوابت الإسلام وانطلقت من قواعده الأساسية ، وهذا يعني أيضا أن الشريعة الإسلامية لها من القدرة المعرفية والمنهجية ما يؤهلها، لأن تطبق في كل عصر بحسب شروطه ومقتضياته ، ووفق منهج الاجتهاد الذي يحمي الشريعة من أن تصاب بالجمود والتوقف..

ومن المؤكد أن قيمنا الإسلامية الخالدة والمجردة عن الحدود الزمان والمكان ، لها القدرة الكاملة على إنتاج النماذج الإسلامية المتميزة في كل عصر، ولها القدرة أيضا على معالجة مشكلات ونوازل الحياة المتجددة، وإيجاد الحلول لها ووضع الأوعية الشرعية لحركة الأمة ومشكلاتها، وذلك بتوجيه النظر إلى الواقع وتقويمه بقيم الدين، والاجتهاد في تنزيل القيم الإسلامية على الواقع، بحيث ينطلق النظر إلى الواقع وتقويمه بقيم الدين والاجتهاد في تنزيل القيم الإسلامية على الواقع، بحيث ينطلق النظر والاجتهاد، من خلال الواقع ومشكلاته وحاجاته وإكراهاته.

إن الاجتهاد، بمفهومه العام هو محاولة لتطبيق الأحكام الشرعية وتنزيلها على الواقع المعيش.. وهذا الأمر يتطلب أول ما يتطلب . بعد فقه النص. النظر إلى الواقع البشري وتقويمه انطلاقا من النص مع مراعات كيفيات تنزيله في ضوء هذا الواقع المتغير . والاجتهاد كما هو منهج في النظر، والتعامل مع العلم والبحث العلمي ، هو أيضا منهج في التطبيق وفي التعامل مع الواقع والزمن ، وتحصيل أعلى درجات المعرفة بشروط العصر ومكوناته ومقتضياته.

وهـ ، يعني أن الاجتهاد هو الذي يقوم بدور نقل الفكر الإسلامي من حيز النظرية إلى حيز التطبيق، ويعطيها التحقق الفعلي ليس بطريقة فورية أو في دفعة واحدة، وإنما على تدرج وفق قاعدة مقتضيات الزمان والمكان . ويميز د. "عمر عبيد حسنة" بين نمطين من الاجتهاد، اجتهاد فكري واجتهاد فقهي، وعلى الرغم . كما يقول . " من أن الاجتهاد بأشكاله فهو فقهي بالمصطلح العام للفقه، وفكري أيضا، لأنه جاء ثمرة التفكير وإعمال النظر ، فإن هذا التقسيم الفني يمكن أن يساهم بتحريك قضية الاجتهاد ويخفف من عقدة الخوف التي تحتل نفوسنا، فالاجتهاد الفقهي هو استنباط الأحكام الشرعية من أدلتها التفصيلية في الكتاب والسنة في ضوء مراتب الحكم الشرعي .. أما الاجتهاد الفكري ، فهو الساحة التي تسع المسلمين جميعا، وذلك بعد أن تتوفر لكل منهم مرجعية شرعية ورؤية إسلامية شاملة للحياة.

إن معيارية التجديد في فقهنا الإسلامي المعاصر يجب أن تستخلص من واقع مجتمعنا المعاصر وقضاياه الحيوية ، وليس من واقع مجتمع آخر ولا من نماذج المجتمعات الغربية المعاصرة.. لذلك فإن جوهر الخلاف بين الاتجاه المحافظ والاتجاه المجدد في فقهنا الإسلامي ، لا تكمن فقط في الخلاف حول الموقف من النصوص الدينية ، وإنما وهو الشائع . حول الرؤية التي يؤسسها هذا الاتجاه أو ذاك عن الواقع، وحول ما يراه جذيرا بالبقاء ومالايراه كذلك.

وبكلمة : إن تجديد الفقه الإسلامي يقتضي وصله بالواقع، ليكون الواقع الاجتماعي على أساس اتساق وانسجام دائم مع الأحكام المنزلة.. وبهذا يجري التوظيف والتطابق بين الواقع الاجتماعي ومؤسساته وعلاقاته.. وبين الأحكام والأفكار..

وبتعبير أدق ، إن تمكين الفقه الإسلامي من إحداث التغيير المنشود في واقعنا المعاصر، يتوقف على جملة من المفاهيم والرؤى التي يشكلها الفقه الإسلامي المعاصر عن طبيعة الواقع الذي يستهدفه التغيير والإصلاح، وعن طبيعة العلاقة بين هذا الواقع والنص. ويمكن اعتبار الاجتهاد الفقهي في كل مرحلة من المراحل وفي كل لحظة زمنية بمثابة جملة الرؤى والمفاهيم التي استقرت في البنية الذهنية للمجتهدين عن الواقع، ومن المنطقي أنه كلما كان فهم المجتهدين للواقع فهما سديدا كلما كان تعاملهم مع المرجعية الإسلامية تعاملا صحيحا.

ونعتقد أن هناك اليوم مجموعة من العقبات والإشكالات تحول دون انعقاد الاجتهاد الصحيح والمثمر، لذلك من حق المرء أن يطرح جملة من الأسئلة علها تكون المدخل الرئيس لفهم جوهر المشكلة، لعل أبرزها تتمحور حول علاقة الفقه بالواقع، وعن علاقة النص بالاجتهاد؟..

نحن ملزمون . اليوم . أكثر من أي وقت مضى . بالإجابة عن هذه الأسئلة وغيرها ، وبإعادة النظر في الاجتهاد الفقهي على ضوء تبدل الواقع وتغيره، واختلاف الزمان وتطوره الأمر الذي يحتم إعادة النظر في أحكام الفقه الاجتهادية على ضوء معطيات النص الخالد.

واقعنا المعاصر، نظرة تحليلية

مرت أمتنا الإسلامية عبر تاريخها الطويل بأزمات عديدة لعل أبرزها تشتت هذه الأمة إلى فرق مذهبية من خوارج ومرجئة وشيعة وقدرية.. الخ، كما برزت حركات سرية داخلية نخرت جسم الأمة من الداخل كالباطنية والشعوبية.. ثم تعرضت لحملات صليبية مختلفة الحدود والأهداف ، أعتاها الحملة التتارية.

وبالرغم من كل هذه التحديات فقد استطاعت الدولة الإسلامية أن تحافظ على تماسكها واستمراريتها وتجاوزت جل هذه المنعطفات وهي متشبثة ومتمسكة بقيمها.. واستطاعت أن تقاوم كل هذه الضغوطات، وخرجت من كل أزمة وهي أكثر تماسكا وقوة..

وبعد تدمير المغول لبغداد في الشرق وسقوط الأندلس في الغرب .. انتقل العالم الإسلامي من أوج ازدهاره وحركيته إلى حالة من الركود والوهن الحضاري .. تزامن ذلك مع ما شهده الغرب من تحولات هامة، أوصلته إلى أوج التألق والازدهار، إن على المستوى العلمي (تطور العلوم التجريبية على الخصوص، أو على المستوى الجغرافي (ما يسمى بالكشوفات الجغرافية) أو على المستوى العسكري من غزو العالم الإسلامي ومحاولة إخضاعه لسياساته ومنظوماته..

ولعل العقدين الأخيرين من القرن العشرين وما شهدته منظومات الأفكار في النطاقات العالمية من تحولات شديدة التحول والتغيير. كانا من أشد الأزمنة تحولا وتصادما وانبعاثا أيضا، فمن تراجع منظومة الأفكار الماركسية التي تعتبر من الأفكار الليبرالية من الحداثة إلى ما بعد الحداثة، حيث فتحت الحديث حول نقد أهم الثوابت الأساسية في العقل الغربي وهي المركزية الأوروبية التي حددت للغرب شكل الانبعاث والتجديدات في منظومة الأفكار الأساسية.

لقد صدم المسلمون عند مقابلتهم مع الحضارة الغربية.. فانكشف لهم ضعفهم الثقافي والاقتصادي والسياسي إزاء قوتها وهيمنتها، وكان لهذا الاتصال بالآخر نتائج خطيرة على عالمنا الإسلامي، أثر سلبا على واقعنا الإسلامي بمختلف جوانبه الثقافية والسياسية والاقتصادية والأخلاقية وقام الغرب بتغريب الأمة الإسلامية وذلك بتحطيم كل مقوم وأسس لحضارته وثقافته...

ومن المحقق أن حركة التغريب نجحت إلى حد بعيد في غزو الأمة وتخريبها من الداخل.. وحملت حضارة الآخر في طياتها مزجا بين مخترعات العلم والتكنولوجيا، وبين منظومة القيم الأخلاقية والانسانية الخاصة بها.. فقدمت حضارتها إلى عالمنا الإسلامي (المتخلف) كأنها وحدة وكل لا يتجزأ.. إلا أن العالم الإسلامي وإن كان قد فقد حضارته وتمدنه، وتراجع من هذه الناحية، إلا أنه لم يتراجع أو ينهزم ثقافيا حتى ما حصل في ظروف تاريخية معينة من ابتعاد المسلمين عن جوهر وروح الثقافة الإسلامية .. وبتعبير الأستاذ مالك بن نبي فإن الذي تحطم هو عالم الأشياء، وبقي عالم الأفكار على توقده..

وإذا كان الفقه الإسلامي في تاريخه كان يتعامل مع إشكالات فقهية من نتائج البيئة الإسلامية ، فإنه مع سيطرة الحضارة الغربية وهيمنتها على العالم . خاصة الإسلامي . أصبح هذا الفقه مطالبا بالإجابة على أسئلة فرضتها هذه الهيمنة وكانت تعبيرا عن التطور الذي عرفه المجتمع الغربي. إن ارتباك كثير من الفقهاء في إجابتهم على الإشكالات الفقهية المعاصرة نابع من كون أن تراثنا الفقهي الموروث-على سعته وثرائه -لا يسعفنا في تأسيس مقربات فقهية لهذه المعضلات والمشكلات .. لأن هذا التراث الفقهي كان بمثابة إجابات على الإشكالات الداخلية التي ولدها وأفرزها تطور المجتمع المسلم الذي كانت مرجعيته إسلامية (مرجعية التوحيد).. نعم، قد يستطيع هذا الموروث الفقهي أن يستوعب جملة من الأسئلة الفقهية التي لها طابع داخلي ، أي يفرزها المجتمع المسلم من داخل مرجعيته التوحيدية.

والملاحظ أن معظم الإشكالات المعاصرة تتطلب فقها جديدا يأخذ في عين الاعتبار غرابة هذه الأسئلة عن البيئة الإسلامية (التوحيدية) وانتمائها إلى البيئة الغربية (الشركية) .. وكمثال بسيط على ذلك ، ما يثار الآن من جدال حول مفهوم " الحداثة " والاجتهاد، ومحاولة البعض ربط الحداثة بالاجتهاد الإسلامي.. فمفهوم الحداثة مفهوم ابتكره الغرب ، ويعبر من خلاله عن تجربته الفكرية والتاريخية ويعبر كذلك عن رؤيته للتقدم وللحضارة .. هذا المفهوم حاول الغرب أن يحتكره لنفسه ويربطه بتاريخه وجغرافيته، ويلحقه بمنظومته الفكرية والفلسفية ، وبطريقة تصور الحداثة في الغرب، والغرب هو الحداثة أما مفهوم الاجتهاد ، فيمكن اعتباره أحد أهم المفاهيم التي ابتكرتها المنظومة الإسلامية ، وانفردت بها الحضارة الإسلامية، فقد نشأ و تطور في الإطار الزمني والتاريخي لهذه الحضارة ، وترك تأثيرا مهما في منظومة الثقافة الإسلامية ، وفي تكويناتها وتشكيلاتها، وعلى حركتها ومساراتها.. والاجتهاد في جوهره وفلسفته هو بمثابة النظم المعرفي الذي يربط الدين بالدنيا، ويؤسس علاقة الشريعة بالحياة والفقه بالواقع والزمن والعصر، هذا النظام المعرفي تبلور في علم هو من أبرز ثمرات العقل الإسلامي الخالص في عصور إبداعه ، وهو علم أصول الفقه الذي أخذ كما يقول " الغزالي من صفوة الشرع والعقل سواء السبيل، ويمثل - في رأي طه جابر العلواني - فلسفة الإسلام.

أمام هذا الوضع اختلف علماؤنا ومفكرونا وحتى حكامنا في كيفية التعامل مع هذا الوافد من الآخر بين مؤيد ورافض.. كما أخذ اتجاه التوفيق والوسطية بين كلا الاتجاهين موقعه في الأمة.. وما زالت أمتنا المهزوزة تعاني من مشاكل التبعية و الانتماء للآخر، بل هي اليوم خاضعة لاختراق ثقافي عنيف لم تعرفه بهذه الحدة في تاريخها.

أين الخلل إذن؟

من الواضح أنه عندما جمدت الحياة الإسلامية على مستوى الإنتاج والإبداع ، قلت الإشكالات والنوازل التي تطرح داخل المجتمع الإسلامي، ومن جهة أخرى أصبح الفقه مرغما ومضطرا في أحايين كثيرة للإجابة . كما أشرنا سلفا . عن أسئلة هي من نتاج الحضارة المادية الغربية، هذه الأسئلة التي لا يمكن فصلها بأي حال من الأحوال عن بيئتها التي أفرزتها، ومن الراجح أن يكون هذا المعطى الأخير مما يسر تحول مسارنا الفقهي إلى فقهي ثانوي اضطراري.

وحين يؤخذ فكر كان ثمرة تفاعل مع واقع معين مأخذا مطلقا وينقطع عن إطاره الواقع يصبح تراثا مجردا تنسد طرق الاجتهاد فيه والتجديد ، لأن التفاعل مع الواقع الحي هو الذي يعرض الفكر لتحديات الظروف المتجددة كل يوم ويستفزه إلى أن يستجيب لها فيتجدد وينمو اضطرادا.

ومن جمود الفكر جمدت الحياة، ذلك أن قطاعات واسعة من الحياة قد نشأت من جراء التطور المادي وهي تطرح قضايا جديدة تماما في طبيعتها لم يتطرق إليها فقهنا التقليدي ، ولأن العلاقات الاجتماعية قد تغيرت شكلا ومضمونا .. انقلبت انقلابا تاما.. واتسع العلم البشري اتساعا كبيرا، وكان الفقه القديم مؤسسا على علم محدود بطبائع الاشياء وحقائق الكون وقوانين الاجتماع، مما كان متاحا للمسلمين في زمن نشأة الفقه وازدهاره.. أما اليوم فصار لزاما علينا عقد تركيب جديد يوحد ما بين علوم النقل وعلوم العقل التي تتجدد كل يوم وتتكامل بالتجربة والنظر.. والحق أن التبصر في مقالات الأصوليين وفي تطورها، واختلافها يومئ إلى وجهين من التعلق، الاستنتاج من أدلة الشرع وأحكامه وهو الأصل، والاستنباط من بيئة الواقع وهو الأصل الأدنى..

إن بعض المباحث والمبادئ في علم الأصول أو منهج الفقه التقليدي لا تستجيب لمتطلبات النهضة الفقهية وحاجتها، ولا تتلاءم والبيئة المادية الاجتماعية والثقافية الحاضرة..

وهذا ما يفند ، من جهة أخرى ، زعم الكثيرين بأن سبب الفصل الذي وقع بين الواقع والفقه، وتراجع الفقه من الناحية العملية راجع إلى إغلاق باب الاجتهاد، بحيث يشير هذا الزعم إلى أن دعوة العلماء إلى وجوب إغلاق باب الاجتهاد أدى إلى عجز الفقه الإسلامي عن استيعاب تحركات الواقع وميكنزماته (آلياته) ، بل من العلماء من يزعم أن إغلاق باب الاجتهاد كان السبب الأبرز لفصل الأحكام الشرعية عن السياسة الشرعية..

إلا أن للباحث أن يلاحظ أيضا في هذا الصدد أنه بالرغم من مناداة الكثيرين ب " إغلاق باب الاجتهاد"، فإن بعض صور الاجتهاد ظلت مستمرة استمرار حركة الفقهاء واجتهاداتهم .. فإن كان الاجتهاد المطلق قد أغلق طوال هذه السنين بحيث ما عادت مسألة" الاجتهاد المطلق" تظهر إلا في ظروف خاصة عند التأزم وانسداد الأفق، وعندنا مثلان واضحان على ذلك في تاريخنا الفكري . مثال ابن تيمية (ت 728 هـ) في مطالع القرن الثامن الهجري الذي دعا - مستجيبا بذلك للظروف السياسية والاجتماعية الطارئة- بالعودة إلى الأصول .. وفي أواخر القرن العاشر الهجري دعا السيوطي إلى الاجتهاد المطلق غير المقيد بالمذاهب غير أنه من الملاحظ أن كلا من ابن تيمية والسيوطي قصرا دعوتيهما الاجتهاديتين على مجال " الأحكام الشرعية" لأن الحاجة كانت مقصورة آنذاك على ذلك المجال الذي يتناول علاقات " النصوص" بالوقائع المستجدة.

فإن الفقهاء قد استمروا في ممارسة علمية الترجيح والتخريج كشكلين بارزين من أشكال الاجتهاد. كما أن الاجتهاد الجزئي ظل المنفذ الوحيد الذي استغله المتأخرون ليجتهدوا في كثير من النوازل والفتاوى، وللتذكير فقط فإن من أقسام الاجتهاد عند الأصوليين: تخريج المناط وتنقيح المناط وتحقيق المناط،

ولما بحث الشاطبي في قضية خلو الأرض من المجتهدين ، قال: إن ذلك ممكن بالنسبة إلى القسمين الأولين(أي تخريج المناط وتنقيح المناط) أما بالنسبة إلى القسم الثالث فلا يمكن عقلا وشرعا، وذلك لأن تحقيق المناط معناه تنزيل الحكم الشرعي على آحاد الصور، وذلك كثيرا ما يشتبه فيحتاج إلى الاجتهاد، فلو منع كان ذلك رفعا للتكليف من أصله.

وبكلمة ، فإن هذه القضية قد حملت أكثر مما تحتمل، وبقي للباحثين أن يعمقوا البحث في الأسباب الأخرى التي تقف وراء انسحاب الفقه من الحياة المعاصرة، على هذه الجهود من أسباب نهضة هذا الفقه وسبيلا إلى تجديده.